الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

جامعة عبد الحفيظ بوالصّوف –ميلة–

معهد الآداب واللّغات
قسم اللّغة والأدب العربي

المرجع:.....

صورة المرأة في رواية «تشرّفت برحيلك» لفيروز رشّام

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر 2 في اللغة والأدب العربي
تخصص: أدب حديث ومعاصر

إعداد الطالبة:
خديجة بوشيحة

إشراف الدكتورة:
مريم بوزروة

شكر وتقدير

إلى كل الذين ساندوني في إنجاز هذا العمل

أسرتي ...

أساتذتي الكرام ...

زملائي ...

لكم مني خالص الشكر والتقدير ...

إهداء

أحمد الله عز وجل على أن العمل المتواضع.

- إلى سندي في الحياة: أبي سندا لي بعطفه وحنانه. وفقني الإتمام هذا
- إلى القلب الطاهر: أمّي التي لونت عمري وربي بجمالها.
- إلى مصدر دعمي: الأستاذ عبد الحفيظ بورايو.
- إلى مصدر قوتي: الدكتورة: مريم بوزردة.
- إلى صديقاتي: آمنة عنوش ونسرين ورقية بوشيحة.
- إلى كل من ساندني وأرشدني.
- إلى جميع أصدقائي الذين كانوا نعم المعين
- وإلى لطفي الحريص على إتمام المذكرة منحني القدرة على مواصلة النجاح ليس في عدم الإخفاق أو الفشل، بل في النهوض بعد كل عثرة...

مقدمة

عرفت الرواية العربية انتشارا واسعا نتيجة ظهور كثير من الأعمال الروائية، الّتي تنوعت تجربتها، وعنيت بأساليب فنية جديدة، فالرواية تصوير للواقع ومرآة عاكسة للحياة الاجتماعية بتناقضاتها، كما تصور معاناة الناس، وتصزّرها بكل تفاصيلها بالتّطرق لـ: أخلاقهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، ومعاناتهم، فهي شديدة التعقيد.

وتحيط بمختلف جوانبهم الاجتماعيّة، والسّياسيّة، والتّاريخيّة، والثّقافيّة...

فهي بمثابة ثورة ابداعية طغت على الأجناس الأدبية حتى أُطلقت تسمية «عصر الرواية» على العصر الحديث ، فالرواية هي ديوان العرب في الوقت الراهن، وذلك لما تتمتع به من قدرة على مواكبة المجتمع، ومستجدات العصر، فهي الأقدر من بين كلّ الفنون الأدبيّة على تحري رؤى العالم، وآفاقه؛ لأنّها تعالج الواقع وفق الخطيّة الفنيّة حتّى تقدّم للقارئ نماذج تمثل قمة العملية الابداعية.

وقد حدثت مع مطلع القرن العشرين تغيرات كبيرة في الثقافة العربية؛ حيث انفتحت الرواية على شكل التعبير الحداثي، كما برزت على الساحة الأدبية تجارب نسائية متفرّدة شكلا وموضوعا، وقد أدى هذا التميز إلى اقبال الجمهور عليها، والاهتمام بها قراءة ونقدا في مختلف الدراسات والملتقيات. وقد ظلّت قبل -هذا القرن- العملية الابداعية بكل مجالاتها لفترة طويلة تقتصر على الرجل الّذي سيطر على الساحة الأدبية؛ ليجعل كل القضايا، والمواضيع التي تتطرّق لقضايا المجتمع، وحتى المرأة التي تعتبر جزء لا يتجزأ منه، موضوعا تملأ دفاتره، ولقد استمرت هذه الحالة لمدة طويلة.

وقد ظلّ اقتحام المرأة عالم الأدب بوصفها منتجة يخضع للأخذ والرد، وظل كذلك حكرًا على الرجل كباقي الفنون، والعلوم التي استأثر الرّجل بها. فالأدب مهما اختلف تعريفه عند النقاد والدارسين فلن يختلف في كونه فنا قوليا أداته الكلمة، وفنيته الأدب تربطه بالوجدان ربطا حتميا، فالوجدانية هي العنصر الجوهري المشترك بين الفنون جميعا، ودونها لا يكون الأدب فنا... وإنها كذلك عنصر أصيل في فطرة الأنثى، فهي هنا تتفوق في مجال هيئت له.

إن المتتبع لواقع المرأة في أيّ مجتمع، يجد أنه واقع له خصوصياته؛ لأنّه نتاج الشروط الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والقانونية التي تعيشها، وكذا نتاج ذخيرتها المعرفية، والجمالية

المختلفة عن الرجل... ومن هنا نبع الإختلاف بوصف تجربتها ذاتية، زخاصّة. واستنادا على المتخيل الثقافي ينظر إلى ما تبدعه المرأة على أنه جزء من سلوكها الاجتماعي.

ويمكن تعريف الأدب النسوي بأنه ذلك الأدب الذي تكتبه المرأة على خلفية وعي متقدم، أدب ناضج ومسؤول لجملة العلاقات التي تحكم وتتحكم في المرأة في مجتمعنا، ويكون جيد التحديد والتوصيف، والتنقيب في هذه العلاقات، ويلتقط بالقدر نفسه النبض النامي لحركة الاحتجاج، معبرا عنها بالسلوك، والجدل بالفعل والقول، وتعي كاتبته القضايا الفنية، والبنائية، واللغوية الحاملة للقدرات التعبيرية المثلى عن حركة التيارات العميقة المولدة للوعي النسوي الجمعي، والوعي الاجتماعي الكلي المحيط به، والمتشابك معه في صراع حي متجدد وبالغ الحيوية.

وممّا لا يُشكّل محلّ خلاف أنّ تأخر ظهور إبداعات المرأة سواء القصصية أو الروائية في العقود السابقة يرجع إلى ظروف اجتماعية، وثقافية؛ حيث لم تسمح لها هذه الظروف بالظهور والتعبير عن ذاتها فنيا وأدبيا. ولكن منذ ستينيات القرن العشرين تغيرت تلك النظرة وحلّت محلّها نظرة مختلفة ومغايرة في عالم الكتابة، بظهور مصطلح «الأدب النسوي» أو «الكتابة النسوية»؛ إذ بدأ الحديث بشكل واضح عن «الأدب النسوي» في الوطن العربي، ليفرض إبداع المرأة نفسه على الساحة الفنية بلا جدال. وعليه يمكن القول إنّه ظهرت مع القرن العشرين دعوات تنادي بالنسوية، ويمثلها الأدب الذي ينطلق من ذات المرأة، وكيانها، وعلاقتها مع الحياة والمجتمع.

ويلحظ متتبع النشاط الأدبي والسياسي في الجزائر قبل الثورة يُدرك أنّ غياب دور المرأة فيه واضح، فلا أثر لحضورها في الحركة الثقافية، أو أيّ نشاط آخر، فقد كانت تعيش وضعا اجتماعيا محاصرا بالتقاليد، والجهل، والتسلّط، ناهيك عن النظرة الدونية، والرؤية الاحتكارية المكرسة الّتي تعظم ابداع الرجل، تحتقر انتاج المرأة وتُقزّمه، ومع ظهور الثورة سنة *1954* كان للمرأة الجزائرية فرصة للتعبير عن الذات واثبات قوتها؛ حيث صنعت لنفسها حضورا متميزا على المستوى المحلي والعربي، ورسمت لنفسها مكانا على خارطة الابداع الأدبي النّسويّ العربي، لتكون بذلك قد خطت خطوة واضحة نقلتها من التجربة الهشة إلى مكانة انتزعت بها الإعجاب والصدارة؛ حيث تخلصت

من السطحية والمباشرة، وأصبحت أكثر قدرة على استنطاق الذات، وسبر أغوارها، فسخرت قلمها للكشف عن خيالها الخصب، وامتلاكها ناصية اللغة، وبراعة التعبير عن الذات.

ويُمكن القول عن بدايات الرواية النسائية أنّ ظهورها يعود إلى سنة *1979*، أما الحضور الفاعل للرواية فقد كان في التسعينيات وبداية الألفية، ولا يمكن للباحث أن يتجاوزه كونها من أشد الفترات سوداوية في الجزائر، فكانت الرواية وحدها قادرة على استيعاب هذا الكم الهائل من الألم، والمتصفح لهذه الأعمال الأدبية يدرك أن أغلبها شديد الارتباط بالقضايا الكبرى التي عاشتها الجزائر فكانت تيمات: الوطن، والاستعمار، والثورة، والإرهاب بارزة دون أن ننسى قضية المرأة ونهايتها المأساوية، فجاءت روايات الأزمة لإعادة كتابة التاريخ الدموي الذي يشهده المجتمع والواقع المزري الّذي عاشه، وعليه فبقدر ما يكون التعامل مع الواقع بعمق بقدر ما يكون إنتاج جماليات ذلك الواقع في مجال الرواية أكثر إقناعا وأوفر تأصيلا على حدّ قول الشريف حبيلة في كتابه «الرواية والعنف»؛ إذ عجت تلك المدة بكثير من الإنتاجات التي تستوحي موضوعاتها وأحداثها من يوميات المحنة، فالكاتب من خلال هذه الروايات يقدم لنا صورا مختلفة للعنف التسعيني تجمع كلّها لتصور لوحة مأساوية لوطن غاص في أحزان وآلام لا حد لها.

أنتجت هذه الأزمة أصواتا روائية شابة، برزت ناقدة للوضع المأساوي، وخطوة بخطوة أصبحت أسماؤها تملأ صفحات الجرائد، والصحف، والمجلات، فصارت ظاهرة لافتة للانتباه، مثيرة كثيرا من الأسئلة، فهي ظهرت جزئية تكتب عن هاجس الذات، والمجتمع، والوطن، والمثقف، والإنسانية، والإرهاب، والعنف، والعدالة محاولة في إصرار اثبات رؤيتها، وفرض خياراتها، تراهن في تجربتها على نصوص روائية واعدة.

ومن هنا، وتأسيسا على ما سبق تبلورت إشكالية هذه المذكرة التي تقوم على البحث عن **كيفية تمثل صورة المرأة في الرواية النسويّة الجزائرية المعاصرة**، وقد اختصّ هذا البحث الموسوم «صورة المرأة في رواية «تشرّفت برحيلك» لفيروز رشّام» بدراسة تجليّات صورة المرأة في مدوّنة البحث، وهو الأمر الّذي دفعني لطرح التّساؤلات الآتية: .

ما هي صور المرأة المتعدّدة الّتي حرصت الرّوائيّة على تجسيدها في روايتها؟

ما هي قضايا المرأة التّي تناولتها الرّوائيّة، وسلّطت الضوء عليها؟

ما مدى وعي الرّوائيّة الجزائريّة بالأزمات الّتي تعاني المرأة منها من جهة، وبطرق معالجتها من جهة أخرى؟

ما مدى تطابق الصّور الّتي تجلّت في الرواية مع الواقع المعيش في الجزائر؟

ما هي خصائص الكتابة السّرديّة لدى الرّوائية فيروز رشّام؟

وما هي الأهداف الّتي تسعى الروائية إلى تحقيقها من خلال العمل الرّوائي؟

أما عن الدراسات السابقة التي اعتمدت نجد منها دراسة عامة اهتمت بصورة المرأة في الرواية العربية، ونذكر منها -على سبيل المثال لا الحصر- دراسات وجهت جلّ اهتمامها لدراسة صورة المرأة في المنتج الروائي لبلد من البلدان العربية، أهمّها:

دراسة (المرأة في الرواية الجزائرية) للناقد مفقودة صالح والتي تناولت المرأة والحركات النسائية في العالم، بخاصة العالم العربي ثم تناولت الدراسة أوضاع المرأة الجزائرية، كذا علاقة الرواية الجزائرية للواقع وتعبيرها عن المرأة، التي استنفذت منها في فهم حضور المرأة في الروايات العربية بشكل عام.

أمّا الدّراسات السّابقة الّتي تصدّت لرواية «تشرّفت برحيلك» لفيروز رشّام، فأذكر:

- مذكرة ماستر (دراسة البنية المكانية في رواية «تشرّفت برحيلك» لفيروز رشّام)، إعداد الطّالبة: مروة جديات، إشراف: د. رشيد بودالية، جامعة البويرة، الموسم الجامعي: *2018 – 2019*م.

- مذكرة ماستر (دراسة أسلوبية لرواية «تشرّفت برحيلك» لفيروز رشّام)، إعداد الطّالبات: عديدي قري، وكنزة مرسلي، ومنى نملي، إشراف: أ. صليحة لطرش، جامعة البويرة، الموسم الجامعي: *2017 – 2018*م.

ومن أجل الإلمام بموضوع البحث، تمّ قسّمت هذه الدّراسة إلى فصلين: خصّصت الأوّل منهما للحديث عن أزمة المرأة وصراعها مع الآخر، وذلك من خلال التّطرّق إلى العناصر الآتية:

1/ الأزمة. ***2***/ المرأة والعنف. ***3***/ المرأة والإرهاب. ***4***/ المرأة والجنس. ***5***/ المرأة والجسد. ***6***/ المرأة والحب. ***7***/ المرأة والحب.

في حين عالج الفصل الثّاني تجليّات المرأة في رواية «تشرّفت برحيلك» من خلال العناصر الآتية:

1/ الصورة. ***2/*** صورة المرأة الحبيبة والعشيقة. ***3/*** صورة المرأة الأم. ***4/*** صور المرأة السّلبيّة. ***5/*** صورة المرأة العاملة. ***6/*** صورة المرأة المتحكّمة. ***7/*** صورة المطلّقة. ***8/*** صورة المرأة الصّديقة.

لتصل الدّراسة إلى خاتمة حُدّدت فيه أهم النّتائج المتحصّل عليها.

أما عن المنهج المتّبع في هذه المذكرة، فهو المنهج الوصفي لكونه أكثر ملائمة وانسجاما مع أهداف المذكرة.

- كما أنه يتجاوز دراسة النص الداخلية والتعرف على دلالاته إلى البحث عن المضمر داخل النسق الثقافي الذي يدعو إلى التفكير.
- وكذا كونه الأنسب في وصف وترصد الأحداث وحال المرأة في الرواية، وكذا اهتمامه بالبحث عن الأثر الذي يتركه النص الأدبي في ذهن القارئ.

اعتمدت على مصدر وحيد يتمثّل في رواية «تشرّفت برحيلك» لفيروز رشّام.

واستعنت في إنجاز هذا العمل بالعديد من المراجع أهمها:

- سرد الجسد وغواية اللغة للأخضر بن السائح.
- الشعر الأدبي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية لاسماعيل عز الدين.
- صورة المثقف لإدوارد سعيد ترجمة غسان غسن.
- الصورة الفنية في شعر مسلم عبد الوليد التطاوي عبد الله.
- شخصية المثقف في الرواية العالية الجديدة عبد السلام محمد الشاذلي.
- العنف في مواقف الحياة اليومية محمد سعيد ابراهيم الخولي.
- قضايا المرأة بين الصمت والكلام في الرواية النسوية العربية للسيوف نبيلة فايز.

أما عن الصعوبات والعقبات التي واجهتني في سبيل اتمام هذا العمل تتمثل في:

- صعوبة التّحصّل على المراجع التي تناولت صورة المرأة في الرواية؛ إذ إن أغلب المراجع المتوفرة، والتي تم تحصيلها تدرس وتناقش صورة المرأة في الشعر.
- عدم القدرة على تحصيل بعض المراجع التي تتناول صورة المرأة في الرواية، وذلك بسبب العزل الصّحي الذي فُرض بسبب وباء كورونا، وعدم التّمكّن من التنقل لانعدام وسائل النّقل.
- استحالة إجراء مقابلة شخصية مع الروائية بسبب انشغالها الدائم، وعزوفها عن الرّد على التّساؤلات والانشغالات.

وأما عن أسباب اختياري لهذا الموضوع، والبحث فيه فإنه راجع لسبب واحد هو سبب ذاتي يتمثل في تعلقي بالبحث في مجال الرّواية الّتي شُغفت بقراءتها، ومطالعتها، ثم بحثا منذ التحاقي بمقاعد الجامعة، ولأنّ الفنّ الرّوائيّ يُعدّ من أوسع الأجناس الأدبية انتشارا، وأكثرها تأثيرا على المجتمع في الوقت الحالي؛ لأننا نعيش زمن الرواية.

وأخيرا لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى كل من قدم لي يد العون والمساعدة لإتمام هذه المذكرة، سواء كان ذلك بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، وعلى رأسهم أستاذتي الفاضلة الدكتورة مريم بوزردة، والتي شرفتني بقبولها الإشراف على هذه المذكرة، ولم تبخل عليّ بعلمها، وجهدها، ووقتها، وظلّت على عهدها، وهذا من باب رد الفضل لأهله.

الفصل الأوّل:

أزمة المرأة
وصراعها مع الآخر

يُعد مفهوم الأزمة من المفاهيم القديمة إلا أنه حديث الولادة، فهو مصطلح شائع شيوع مختلف الأزمات التي جعلت البعض يطلق على هذا العصر تسمية عصر الأزمات، غير أن هذا لا يلغي تلك الأزمات التي مرت بها الإنسانية سابقا، قبل العصر الحديث حيث تمثل معالم طريق عبرت خلاله الإنسانية وشيدت عبره حضارتها.[1]

1/ مفهوم الأزمة:

1.1/ لغة: جاء في «لسان العرب» في مادة: «أزم: شدة العض بالفم وقبل بالأنياب وهي الأوزام وقبل هوان يقبض عليه بغية أزمه وأزم عليه وأزوما وهي أشد العض، والأزم: القطع بالأنياب والسكين وغيرها، والأوزام والأزم: الأنياب والأزمة: الشدة والقحط، وفي حديث مجاهد أن قريشا أصابتهم أزمة وكان أبو طالب ذا عيال، ويقال: أزم عليهم الدهر والعام: يأزم أزما وأزوما، اشتد قحطه وقيل اشتد وقل خيره والسنة آزمة وأزوم وأزمة والأزمة السنة المجدبة».[2]

وعرّفها صاحب أساس البلاغة في قوله: «من المجاز، أزم الهر علينا، وأزمتنا أزمة وسنة أزمة والأزوم وسنن أوزام وأصابتهم أزمة وتتابعت عليهم الأزمات».[3] يتضح من خلال قول الزمخشري أَزَمَ؛ أي اشتد عليهم الحال، وأصابتهم أزمات؛ أي التقت عليهم الشدائد.

2.1/ اصطلاحا:

تعدّدت تعريفات الأزمة الاصطلاحيّة بتعدّد الباحثين الّذين تصدّوا لهذه الثيمة بالدّرس والتّحليل، وسأعرض بعضا منها بُغية الخروج بمفهوم شامل لهذا المصطلح.

تُعرّف الأزمة بأنّها «حالة مؤقتة من الاضطراب ومن اختلال التنظيم تتميز أساسا بعدم قدرة الفرد أو الجماعة في مواجهة موقف معين، باستخدام الطرق المعتادة لحل المشكلات، كما تتميز بما تنطوي عليه تلك الحالة من إمكانيات لحدوث نتائج أو مترتبات موجبة أو سالبة بشكل جذري تتعلق بأمور مصيرية بالنسبة لأهداف المجتمع وكيانه».[4]

---

[1] الخضري محمد أحمد: إدارة الأزمات، مكتبة مدبوني، الطبعة *1*، القاهرة، مصر، *1995*، ص: *77*.

[2] أبو الفضل جمال الدّين بن منظور: لسان العرب مادة أزم، الطبعة *02*، لبنان، بيروت، *1968*، ص: *100-101*.

[3] جار الله الزمخشري: أساس البلاغة، مادة أزم، الطبعة *01*، مكتبة بيروت، لبنان، *1992*، ص: *6*.

[4] عبد الغني خشبة: الشعر المعاصر بين واقع الأزمة وحداثة الخطاب، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة قسنطينة، الجزائر، *2016*، ص: *11*.

فالأزمة بدورها تفرز أزمات نوعية وجزئية أخرى نتيجة تراكم مستجدات فيصعب ضبطها.

وتتعدد مفاهيم الأزمة؛ لأنّ كل ناقد أو دارس ينظر إليها من وجهة نظر خاصة، وترجع صعوبة تحديده إلى شمولية طبيعته؛ واتساع نطاق استعماله، لينطبق على مختلف صور العلاقات الإنسانية في كافة مجالات التعامل الإنساني، وعلى تعدد مستوياته حتى يكاد أن يكون من المتعذر علينا إن لم يكن من المستحيل أن نجد مصطلحا يقابل مصطلح الأزمة في ثراء إمكاناته، واتساع مجالات استخدامه.

انطلاقا من الحديث عن «أزمة الثقة التي قد تنشأ بين صديقين، وتهدد استمرار صداقتهما [ووصولا إلى] أزمة العلاقات القطبية التي قد تطرأ على العلاقات بين القوى العظمى وتهدد مصير العالم بأسره»،[1] والأزمة هي اللحظة المصيرية في التحول بين الحياة والموت، فهي تحمل تغيرا جوهريا ومفاجئا، وهي اللحظة الفاصلة الحرجة بين الحياة والموت، وبين السلم والحرب، عند تأزم العلاقات بين الدول، وإذ تنشأ الأزمة في ظلّ حالة من التوتر، وضعف الثقة، وعدم الاستقرار، وستمتد وتتراكم أسبابها من صرعات الماضي التي تنسحب إلى نزعات الحاضر، وزرع بذور الانتقام في المستقبل بعد أن تستبدل بعد انتهاء الازمة التحالفات القديمة بأخرى جديدة قائمة على كيفية التعامل قبل وأثناء الأزمة».[2]

وفي حين أجد أن المنظور الإسلامي ينظر للأزمة نظرة تكاد تكون مختلفة تماما عن باقي التّعريفات السّابقة، فهو ينظر إليها نظرة إيجابية إلى حد كبير؛ حيث يعتبرها منحة ربانية، وفرصة للإصلاح، وتقية للنفس وقد أخبرنا الله ﷻ عن آيات خالدة في القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦ ﴾، [سورة البقرة، الآية: *216*]، وهكذا تربط النتائج النهائية للأزمة بالنفع».[3]

---

[1] عبد الغني خشبة: الشعر المعاصر بين واقع الأزمة وحداثة الخطاب، ص: *16-17*.

[2] إيثار عبد الهادي محمد: استراتيجية إدارة الأزمات، مجلة العلوم الاقتصادية والإدارية، المجلد*17*، العدد*64*، جامعة بغداد، كلية الإدارة والإقتصاد، العراق، *2011*، ص: *49*.

[3] المرجع نفسه، ص: *49*.

ورغم تعدد التّعريفات إلا أنّ هناك شبه إجماع بين الباحثين أنّ الأزمة هي حالة صدمة تمثل انهيارا للهياكل المألوفة التي تمنح النظام القائم شرعيته، مهدّدة قيمه الجوهرية ومكانته ومرتكزاته، كون الأزمة حالة غير اعتيادية، ولا متوقعة خطيرة أحداثها، تهدد المجتمع، وتمنحه فرصة التغيير، ما جعلها مفهوما معقدا وجدليا؛ لأنّها تخلق حالة من القلق، والفزع، والتوتر، وعدم الثقة.

وتعرّف كذلك بـأنها موقف طارئ يُحدث ارتباكا في تسلسل الأحداث اليومية المنظمة، ويؤدي إلى سلسلة من التفاعلات ينجم عنها تهديدات ومخاطر مادية ومعنوية للمصالح الأساسية للمنظمة، مما يستلزم اتخاذ قرارات سليمة في وقت محدد، وفي ظروف يسودها التوتر نتيجة لنقص المعلومات، وحالة عدم التيقن التي تحيط بأحداث الأزمة.

3.1/ الأزمة الجزائرية وأسبابها:

مرت الجزائر بـ132 سنة من الاستعمار من الواضح أنها مدة كفيلة لتركها في خراب تام من كل الجوانب اقتصاديا وإجتماعيا وثقافيا، حيث كان النظام آنذاك بين خيارين إما إتباع النهج الإشتراكي والرأسمالي، لأن هذا الأخير ارتبط بالدول المستعمرة، فهذه المرحلة تعد أكثر صعوبة وخطورة على ممر العصور التي مرت بها الجزائر، فبعدها أخذت الاستقلال الذي جاء بفضل أبناءها الذين كانوا يدا واحدة ضده، لكنها لم تعش سعادتها وفرحتها لأن الأزمة كانت قد ضربت كل شيء.

في ضوء هذا إن الأزمة هي كل اختلال في التوازنات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والإقليمية التي تفتح الصراع بين مكونات المجتمع الإقليمية الرافضة للنظام القائم والمطالبة بالتغيير، ما جعل الوضع الاجتماعي غير عادي، وهو انعكاس حتمي لمطالب الجماهير وعجز النظام عن تلبيتها أمام تخليه عن مبادئه وضوابطه، وما يجعل الإصلاح حاجة ملحة للمجتمع من أجل حماية الشعب من التفكك والإنحلال.

وقد أجمع أغلب الدارسين والمثقفين على أن العامل السّياسيّ هو أساس الأزمة الجزائرية، وتجدر الإشارة إلى أنّ الأسباب الحقيقية للأزمة تعود إلى العشرية السوداء؛ حيث تجلّت الأزمة في فراغ مؤسساتي صاحبه اختناق اقتصادي وهيكلي.

واجهت الجزائر وضعا جد مزري تحت تأثير إرهابي دنيء وشنيع، وظل هذا الوضع سائدا طيلة الفترة السوداء مأساة وطنية، أفرزت مشاهد دموية تتخفى عنها الجهات المسؤولة ليكون الوطن والمواطنين مسرحا لأبشع المجازر وغيرها.

«عاش الشعب الجزائري في تسعينيات القرن العشرين سنوات من الرعب والخوف، وُسمت بسنوات الدّم، وعرفت باسم العشرية السوداء؛ أي ما قارب العشر سنوات بين النظام الجزائري والجبهة الجزائرية للإنقاذ، ومن هنا يبدو أن الأخذ بالأسباب الجوهرية للأزمة هو سبب النظام السياسي وطابعه الاستبدادي وفشل النخبة السياسية في قيام دولة وطنية قوية وعصرية ديمقراطية، حيث مثلت أحداث *1988* أكتوبر حدثا بارزا في ذهنية الشعب الجزائري يقول أحمد طالب الإبراهيمي لأحداث أكتوبر جانبين؛ جانب تلقائي يتعلق بابتعاد الدولة عن تطبيق العدالة الإجتماعية واتساع الهوة بين الحاكم والمحكوم، وجانبا مفتعلا يتصل برغبة بعض أطراف السلطة في تغيير خط جبهة التحرير نحو الليبرالية وقلب تحالف الدول الخارجية، وكانت من الصدمة بين جماعة الإسلاميين والجهة المعارضة أعضاء من المجلس السياسي لحزب جبهة التحرير الوطني وكذلك الصراع بين الجيش والجبهة الإسلامية، وذلك بعد أن أجريت انتخابات محلية فازت بها الجبهة الإسلامية ولكن الجيش أوقف المسار الانتخابي لأنه رأى في فوز التيار الديني خطرا على النظام الجمهوري»،[1] وهكذا غرقت البلاد في الدماء وأصبح التمييز بين القاتل والمقتول من الصعوبة وكانت الجزائر...

4.1/ رواية الأزمة زمن التسعينيات:

تكتسب الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية –خاصة– ظاهرة أدبية فتحت شهية المبدعين، وشدّت اهتمام النقّاد والقرّاء على حد سواء، منذ نشأتها ظلت تسعى بأن تلحق ركب الرواية العالمية، أوجد كما هائلا من الأعمال الروائية، التي ما فتئت حتّى غدت فنّا إبداعيّا له سماته وخصوصياته وجماليته، ما جعلها تتبوّأ موقعا أدبيا في خريطة الابداع الفني في الجزائر، هذا راجع إلى استيعاب إشكالات المراحل التاريخية التي مرّت بها الجزائر، ومن ثمة التعبير عنها.

---

[1] محمد عباس: الوطن والعشيرة، تشريع أزمة *1991*–*1996*، الطبعة *01*، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، *2013*، ص: *68*.

يسعى الفن الروائي إلى التجديد، والتطور المستمر لاستيعاب القضايا المستحدثة، وتجاوز الأفكار أفق الكتابة وترحيب لطرح الأسئلة حول الجزائر في زمن المحنة، حيث كانت فترة التسعينيات حافلة بالروايات التي تعمل على التأسيس لنص روائي يبحث عن تمييز إبداعي مرتبط ارتباطا عضويا بتمييز المرحلة التاريخية التي أنتجته، وبالواقع الاجتماعي الذي شكّل الأرضية التي استطاع من خلالها الروائيين أن يستلهموا الأحداث والشخصيات من أجل قراءة الأحداث التاريخية قراءة مرهونة بالظرف التاريخي الصعب الذي مروا به.

«أصبحت القطيعة بين السلطة والمجتمع واضحة، توّلد منها الخوف والرهبة والتذمر والاحباط وأخيرا العنف الذي تجسد في أحداث *1988* الأليمة، وهكذا أخذت الرواية منعرجا آخر عالجت فيه موضوع الأزمة ومخالفاتها وآثارها السلبية، فاتخذت المأساة الجزائرية موضوعا ومدارا لها، إذ كان العنف المعروف إعلاميا بالإرهاب كان مدار معظم الأعمال الروائية، إذ أنه لم يكن الطابع الوحيد الذي طبع في السنوات الماضية، إذ لم تكن عشرية الأزمة فقط بل كذلك كانت عشرية التحول نحو اقتصاد السوق وتسريح العمال والغاء الانتخابات *1992*».[1]

يمكن الإحالة عما سبق إلى العديد من الروايات أهمها رواية «سيّدة المقام » (*1995* م) لـواسيني الأعرج، ورواية «المراسيم والجنائز» (*1998* م) لـبشير الفتي، ورواية «فتاوى زمن الموت» (*1999* م) لــ إبراهيم سعدي، و«رواية الورم» (*2002* م) لـمحمد ساري... وغيرها من الأعمال الرّوائيّة الّتي ظهرت في الفترة نفسها، وعالجت الموضوعات ذاتها.

وخلاصة القول: إنّ الفنّ الروائيّ في هذه المرحلة كان شاهدا على الواقع المعيش من جهة، وشاهدا على حضور وعيّ المثقف بالمحنة الّتي مرّ الوطن بها من خلال نتاج رواية الأزمة من جهة أخرى، وبهذا كانت مرحلة التسعينيات القرن الماضي متميزة على أكثر من صعيد بقطع النّظر عن ما طبعها من عنف نتيجة تمكّن الرّوائيّ من «تصوير مشاهد العنف بتجسيد الشخصيات الممارس عليها إلى تجسيد العنف الذي مكّن كتّاب الراوية من الغوص في أعماق الشخصيات، إلى تجسيد العنف في مختلف عناصر الرواية حيث يتمكن القارئ من استيعاب ظاهرة العنف والاستبداد، التي تعرض إليها

[1] ينظر: إبراهيم سعدي: تسعينات الجزائر كنص سردي، (د.ط)، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص: *143-145*.

الشعب الجزائري في تلك الحقبة السوداء». [1] حتّى وُسمت باسم «العشرية السّوداء»، ولعلّ هذا ما يبرّر اتجاه ولأنّ أغلب الأعمال الرّوائيّة إلى معالجة قضيّة الإرهاب وتصويرها.

والملاحظ أن العنف والإرهاب هما العنصران اللذان يغطيان مجمل أحداث الرواية من البداية حتى النهاية؛ إذ يمكن إطلاق تسمية «رواية العنف» على هذه الأخيرة. [2]

2/ المرأة والعنف:

العنف ظاهرة اجتماعية عالمية، وليست حبيسة مجتمع بعينه، فهي ظاهرة منتشرة في جميع المجتمعات؛ حيث ظهرت هذه الظّاهرة منذ بداية الوجود الاجتماعي، فالقاعدة الأساسية التي كانت تنطلق منها الحياة الأولى هي قاعدة «**البقاء للأقوى**»، لكن مع تطور الحياة المدنية بمرور الزمن، ظهرت قيود وقوانين تضبط هذه القاعدة، لكن على الرّغم من التقدم الذي شهده الإنسان إلاّ أنّ هذه القاعدة لا زالت موجودة بشكل أو بآخر؛ حيث لا يقتصر وجودها بين الأفراد فقط، بل حتّى بين المجتمعات والدّول، ومن الملاحظ في السّنوات الأخيرة شيوع كلمة العنف وانتشارها في المجتمع العربي، حينما أصبحت أكثر تداولا من خلال وسائل الإعلام، أو أحاديث أفراد المجتمعات، كما ارتبطت بكثير من الأحداث والظواهر مثل: العنف المجتمعي، العنف والإدمان، العنف والمخدرات، والعنف والإرهاب، العنف ضدّ المرأة، العنف ضدّ الأطفال والقصّر... يؤدي العنف بشكل مباشر على الفرد وعلى محيطه من العائلة وبالتالي يظل المجتمع ونسيجه العام ككل، حيث يسبب عدم الثقة وعدم الشعور بالأمان، فهو يدمر الإنسان على كافة المستويات.

***1.2/* مفهوم العنف:**

***1.1.2/* العنف لغة:**

ورد في معجم «لسان العرب» لـ ابن منظور (ت *711* هـ): «أن العنف هو الخرق بالأمر وقلة الرفق به وعليه وهو عنيف إن لم يكن رفيقا في أمره كما نقول: واعتنق الأمر أخذه بعنف واعتنق الشيء أخذه بشدة، وأعنق الشيء كرهه، واعتنق الأرض كرهها أما التعنيف اللوم والتوبيخ والتفريغ». [3]

---

[1] ينظر: إبراهيم سعدي: تسعينات الجزائر كنص سردي، (د.ط)، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص: *143-144*.

[2] المرجع نفسه، ص: *64*.

[3] جمال الدّين أبو الفضل بن منظور: لسان العرب، المجلد *3*، الطبعة *02*، دار صادر، لبنان، *1968*، ص: *12*.

أما في «المعجم الوسيط» فـ «(عنف) به وعليه –عنفا–وعنافة: أخذه بشدة وقسوة و(اعتنف) الأمر أخذه بعنف».[1]

وكلمة «العنف «*violence*» مشتقة من الكلمة اللاتينية *violare*، والتي تعني ينتهك أو يؤذي أو يغتصب، فالعنف هو انتهاك أو أذى يلحق بالأشخاص والأشياء».[2]

أي إنّ العنف هو اعتداء مباشر أو غير مباشر لإجبار الفرد أو الجماعة على القيام بعمل ما، يأخذ العنف مظاهر عديدة أهمّها: مظاهر جسدية الّتي تتمثّل في الضرب، والاعتداء الجسديّ... ومظاهر معنوية تُؤثّر على نفسيّة الإنسان نحو السّب والشّتم والإهانة اللّفظيّة...

2.1.2/ العنف اصطلاحا:

يعرّف العنف عادة بأنه «الحاق الأذى والضرر بالآخرين، بحيث يكون هذا العنف إما ماديا أو جسميا أو نفسيا أو معنويا بوسائل مختلفة تسبب للمتلقي آلاما وخسائر متفاوتة».[3]

وقد ورد في «مؤتمر الأبعاد الاجتماعية والجنائية للعنف في المجتمع المصري» تعريف اجتماعيّ للعنف مفاده أنّ العنف هو «كل فعل مادي أو معنوي يتم بصورة مباشرة، ويستهدف إيقاع الأذى البدني أو النفسي أو كليهما بالفرد «الذات أو الآخر» أو الجماعة أو المجتمع بما يشمله من مأساة مختلفة ويتخذ العنف أسبابا عديدة ومتنوعة كانت تمثل التهديد والترويع والنبذ مثل التشاجر والاعتداء على الأشخاص والممتلكات والانتهاك الجسدي أو المعنوي في آن واحد».[4]

انطلاقا ممّا سبق يُمكن القول إنّ العنف هو فعل يمارس بالقوة، ويهدف إلى إلحاق الأذى بفرد، أو بجماعة، وهو استخدام غير قانوني للقوة، بُغية تحقيق أغراض غير قانونية تضرّ المصلحة الاجتماعيّة، فإن العنف يكون محاولة لإثبات الذات، وتحقيق السيطرة على الآخر.

[1] مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، المجلد *1*، ط*4*، مكتبة الشروق الدولية، *2004*، ص: *231*.

[2] جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ فرنسية وعربية والأنجليزية اللاتينية، الطبعة *01*، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ص: *120*.

[3] محمد سبيلا: مدارت الحداثة، الطبعة *01*، الشكلية العربية للأبحاث، بيروت، *2009*، ص: *14*.

[4] محمد سعيد إبراهيم الخولي: العنف في مواقف الحياة اليومية، الطبعة *01*، دار مكتبة الإسراء، *2006*، عمان، ص: *43*.

2.2/ تجليّات العنف ضدّ المرأة في رواية «تشرّفت برحيلك»:

يُعدّ العنف ضد المرأة أحد أنماط السلوك العدواني الناتج عن علاقات مكثفة بين المرأة والرجل وكذا سلطة الرجل داخل مجتمع ذكوري بامتياز، وما يترتب عن ذلك تحديد الأدوار ومكانة كل فرد في الأسرة، وفقا لما يمليه النظام الاقتصادي والاجتماعي السائد في المجتمع. « وإن العنف الموجه للمرأة داخل الأسرة سواء كانت زوجةً أو أمًّا أو أختًا أو ابنةً، يتّسم بدرجات متفاوتة من التمييز والاضطهاد والقهر والعدوانية الناجمين عن علاقات القوة غير المتكافئة بين المرأة والرجل في المجتمع والأسرة على حدّ سواء».[1]

يؤدي العنف عموما إلى الحاق الأذى بالمرأة من الجانب النفسي والجسدي، ويعد تهديدا وانتهاكا وحرمانا واضحا وصريحًا لحقوقها ومنعها من التمتع بها كاملة، فالرجل داخل الأسرة دائمًا ما تكون له السلطة الزائدة فيقوم بالسطو على المرأة، دافعًا إياها إلى المنزل محمّلاً لها كل المسؤوليات.

يترتّب عن تفشي ظاهرة العنف في المجتمع معاناة المرأة من مختلف النّواحي، جسميّة، أو نفسيّة، أو جنسيّة، إضافة إلى فعل التّهديد المستمر، وما يُصاحبه تعسّف في حقّها، وحرمان من أبسط حقوقها الّتي يكفلها الشّرع والدّين من جهة، والقانون من جهة أخرى.

يتّخذ العنف ضد المرأة أشكالا متعدّدة، يمكن توضيحها فيما يأتي:[2]

أ/ **عنف جسدّي**؛ يظهر حين الاعتداء على جسد المرأة إمّا بالضّرب، أو استخدام الأسلحة بمختلف أنواعها قصد إصابتها، وإلحاق الضّرر بجسدها.

ب/ **عنف نفسيّ**؛ يتمثّل في محاولة بسط السّيطرة على المرأة من خلال مصادرة حقوقها، ومحاولة طمس شخصيتها بعزلها، وإذلالها، وإيذاء مشاعرها بتعريضها للسّب، والشّتم، والإهانة، والإذلال أمام الآخرين، إضافة إلى تعرّضها إلى التّهديد والتّخويف باستمرار.

ج/ **عنف جنسيّ**؛ ويكون عند إجبار المرأة على ممارسة الجنس بالإكراه، ويشمل ظواهر الاغتصاب، والانتهاك الجنسيّ، والابتزاز والاستغلال الجنسي في الأعمال المشبوهة، وإجبار المرأة على

---

[1] سالم ساري خضر زكرياء: المشكلات الاجتماعية الراهنة العولمة وإنتاج مشكلات جدية، ط*1*، دمشق، الأهالي، *2004*، ص: *101-102*.

[2] يُنظر: مرفت تلاوي: العنف ضد المرأة، محمد حافظ متفرع من تسارع الثورة، المهندسين، الجيزة، مصر، ص: *11*.

الزّواج غصبا دون موافقتها، وزواج القاصرات...

وتُعدّ ظاهرة العنف ضدّ المرأة من أكثر مظاهر العنف انتشارا في مختلف أنحاء المعمورة باعتباره انتهاك صارخا لحقوق الإنسان من جهة، وعائقا كبيرا أمام تحقيق المساواة بين الجنسين من جهة أخرى.

وقد برزت ظاهرة العنف ضدّ المرأة بشكل جليّ في رواية «تشرّفت برحيلك»؛ إذ يلحظ القارئ أنّ العنف قد شكّل ركيزة أساسة في هذه الرّواية الّتي تنقله في رحلة إنسانيّة حافلة بالمواقف، ومفعمة بعواطف الشّفقة والرّأفة من خلال عرض أحداثها الّتي يُفترض أنّها وقعت في سنوات العشريّة السّوداء الّتي عانى فيها الجزائريون تيها وضياعا حالا دون تمكّنهم من اختيار طريق آمن يسلكونه للخروج من الدّماء المحيطة بهم من كلّ حدب وصوب؛ ليُدرك القارئ حينها أنّ العنف يطغى على هذه الرّواية التّي تروي حكاية امرأة/ معلّمة تعرّضت للتّعنيف بمختلف أنواعه، ومن طرف كلّ المحيطين بها.

وتُعدّ فاطمة الزّهراء شخصيّة رئيسية، ففي هذه الرواية تقدم لنا البطلة ومن نوع آخر تختلف عن باقي البطلات، شخصية متحدية رافعة لراية العصيان، ومغامرة هي تلك الشخصية المركزية التي تدور حولها جل الأحداث المتكلم عنها من البداية إلى النهاية.

فقد دل استحضار شخصية فاطمة في الرواية على العديد من القضايا الاجتماعية، المسكوت عنها لعل أهمها:

- معاناة المرأة الجزائرية من العنف سواء أ كان لفظيا أو جسديا، وكذا القتل والإرهاب.
- معاناة المرأة من القوة، والسلطة الذكورية، والنظرة الدونية لها.
- معاناة المرأة من الطلاق.

ورغم هذا كانت فاطمة محبة للعلم، والتطلع، والتغيير، وعلى استعداد تام للتضحية من أجل أسرتها وكذا دراستها وعملها.

ويتضح ذلك من خلال المقاطع الآتية: «شدني من شعري وجرّني نحوه.... ركلني برجله وبقبضة يده».[1] كانت فاطمة دائما تتعرض للعنف بسبب لباسها وشعرها، فلباسها بالنسبة لأخوها

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ط2، دار فضاءات النشر والتوزيع، عمان/ الأردن، 2017، ص: 34.

فهو يعتبر لباس تبرج، ولباس فاضح أي أنه غير الجلباب لا يقبل أو عليها تغطية شعرها قبل مغادرة المنزل.

غير هذا نجد أن فاطمة الزهراء قد عانت العنف عبر مراحل مرحلة العزوبية، حينما كانت فتاة، فهي عانت الكثير من طرف إخوتها.

وتبرز مواقف العنف المتعددة من عنف لفظي، وعنف جسدي، وعنف نفسي، ومن أمثلة العنف الجسدي المقطع التالي: «وأنا أتهيأ للخروج عندما وجدت نفسي وجها لوجه مع فؤاد، نظر إلي من أعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى وكأنه يراني لأول مرة

- عودي وغيّري ملابسك!

- ماذا؟!

- قلت عودي وألبسي لباسا محتشمًا ومستورا.

- ما به لباسي؟ إنه مستور.

- اذهبي وغطي شعرك قبل أن أقطع لك رأسك.

- أغطي شعري! ولماذا؟ لن أفعل.

جريت نحو الباب لأغادر لكنه لحقني وشدّني من شعري، جرّني من فناء الدار إلى مدخل البيت وانهال علي باللكمات والركلات».[1]

كانت وتيرة العنف تتفاقم يوما بعد يوم، وتزداد قساوة أخوها عليها، فهو كان يحرمها ويحد من حريتها الشخصية، في حياتها الخاصة، ويشكل انتهاكا واضحا لحقوقها الإنسانية، وخاصة حقها في العمل.

«أقسم بالله العلي العظيم أنك لن تضعي قدمك خارج البيت بعد اليوم

- هل أنت هو رب البيت! دعني وشأني!

- أنت لا تخافين من أحد! أ تتحدينني يا غبية!

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك، ص: 39.

جريت نحو غرفتي واغلقت الباب، دفعه والدخان يخرج من أنفه وأذنيه كالعادة شدني من شعري ورماني على الأرض، ركلني عدة مرات قبل أن تسحبني أمي من بين رجليه، راح يمزق الكتب والكراريس».[1]

كانت فاطمة دائما تحاول تجاهل أخيها لكن دائم الإصرار والإلحاح على تغيير لباسها وارتداء الحجاب، وإن كان ردها الرفض فحتما سوف تلقى إلا التعنيف، فهو يعتقد نفسه المسؤول الأول عليها قبل والدها.

«قولي لابنتك ألا تخرج من غرفتها إن كانت تريد أن تعيش ...

أدخلي قبل أن أجعلهم يحفرون قبرك اليوم!

هل ستقتلني كما يفعلون الارهابيون يا ارهابي!

لا أدري كيف تجرأت لكنني أدركت بعد أن ... أن قبري فعلا سيحفر اليوم هذه المرة لم يخرج منه الدخان إنما خرجت من أنفه وأذنيه النار كتنين خرافي، أصبح أعنف من أي زلزال ...

أنا إرهابي!!! اليوم ستعرفين ماذا يفعل الإرهابي!!!

في جزء من الثانية سحب سكينا من حيث لا أدري وهجم علي وشدّني من شعري، وأسقطني أرضا لم أفهم إن كان قد همّ فعلا بذبحي أم كان فقط يهددني، لأن سكينه بقيت عالية ولم ينزلها علي ربما لم يستطع إنزالها لأن أمي وجميلة شدتا ذراعه، ... لم يتوقف عن ضربي للحظة».[2]

يبدو جليا – انطلاقا ممّا تقدّم – أنّ الروائية ركّزت على أفعال وأساليب شخصيّة فؤاد العنيفة والدموية، (فؤاد هو أحد الشخصيات التي تدور بين كل ثنايا الرواية، هو ذلك الإرهابي الذي كان دائم الصراع مع فاطمة، يقف دائما في وجهها، وفي وجه اختياراها وكذا حرياتها، كان كثير الكره لها، عديم الرغبة برؤيتها -أي شخصية الإرهابي- تتخذ من الشر والرعب سبيلا لتحقيق مآربها- بقيت قصة فاطمة وفؤاد متواصلة طيلة صفحات الرواية.

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: *43*.

[2] المصدر نفسه، ص: *43*.

والملاحظ أنّ الرّوائيّة قد حرصت على تصوير هذه الشّخصيّة بدقّة، وتحديد مكانتها بوضوح في نسيج عائلة فاطمة الزّهراء، لتبرز بمظهر الشّخصيّة المتسلّطة على باقي أفراد العائلة، شخصية تنصّب نفسها جلادا يطبق الحدّ على الآخرين بعد أن يحاكمهم وفق أهوائه، وما تمليه نفسه المريضة.

كما يظهر جليّا أنّ الذّات الأنثويّة مقيّدة، وحريتها مصادرة، فهي على مدار النّص الرّوائيّ محاصرة باضطهاد الرّجل الّذي يفرض سلطته عليها، ويبسط هيمنته على سلوكاتها وتصرفاتها، حتّى تنطمس شخصيتها، وينتفي كيانها الأنثوي، لتستفيق على واقع مرّ يملؤه العذاب، والقهر، والحرمان، واقع يُجبرها على الانطواء على ذاتها في محاولة للملمة جراحها الّتي لا تندمل.

إن الحديث عن العنف يتطلب دائما وجود طرفين أساسيين هما من يُعَنِّفُ ومن يُعَنَّفُ، فالأول في شكله البسيط الواضح وهو الشخص الذي يمتلك القوة لممارسة العنف وكثيرا ما يكون الرجل الذي يقف وراء قهر المرأة باعتبارها ذلك الكائن المستضعف، فهي تعاني في كل مراحل حياتها وكذا بأساليب وطرق مختلفة، فمثلا العنف الذي يمكن أن نتطرق له وهو عنف الزوج للزوجة يعتبر هذا الأخير عنف جديد وربما قديم لكنه غير معلن فالواقع يشهد أن هناك الكثير من النساء المعنفات من طرف أزواجهن، وهذا ما توضحه الروائية: «كأنما فؤاد من يتكلم اقتلك... نفس الكلمة ونفس اللهجة يهدأ أيضا، يخرج الدخان من أنفه وأذنيه كتنين غاضب لم أعرف ما مدى قدر هو عنيف وقلت له شيئا أخطر:

غيّرت رأيك أنا أيضا غيّرت رأيي وأريد العودة إلى بيت أهلي.

ما إن سمع هذه الجملة حتى شدّني من شعري، وبدأ يضربني بشكل عشوائي رماني فوق السرير وخرج... طوال الأسبوع بقينا نتشاجر، ضربني عدة مرات أخرى.[1] بضربه يبقى يشدني نحو ماض لا أذكر منه إلا الأوجاع والآلام، الدموع والآهات كوني أخت فؤاد وزوجة ناصر من ارهابي معنف إلى آخر.

فكان يضربني في النهار ويضاجعني في الليل باسم حقوق الزوجية، في ذلك المساء ضربني وهذه أول مرة حاولت منعه من لمسي، فكتم صوتي بوسادة إلى أن انقطعت أنفاسي ثم أخذ ما أراد؟!

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 133.

أما فاتح فكان كلما سمعني أبكي وأخوه يضربني ينادي من بعيد:

– أدّبها، أدّبها هكذا فالعصا تؤدب النساء!».[1]

تتواصل معاناة فاطمة الزّهراء إلى أن تصل إلى ذروتها، حتّى بعد زواجها بناصر الّذي تفنّن في تكرار السيناريو ذاته مستخدما ضدّها مختلف أساليب العنف من ضرب، وسبّ، وشتم، وإهانة...وغيرها؛ لأنّها شخص يمكن استبداده، فهي مستضعفة عاجزة عن حماية نفسها.

وهكذا تتواصل المأساة إلى أن تصل إلى أقصى درجات الكمال، لا سيما مع ناصر، كل يوم نفس السيناريو ضرب، عنف، شتم وسب إلى غيرها من أساليب العنف والاستبداد.

«وهذا ما تم تصويره في النصوص الروائية الجزائرية التي نجد فيها ذلك الارتباط الوثيق بالواقع الاجتماعي القاهر للمرأة، إنها تعبّر عن أشكال القهر والعنف، الفقر الذي يعيشه أفرد المجتمع الجزائري خاصة المرأة الذي يمارس عليها العنف المادي والمعنوي».[2]

أجد أن الزوج في هذا المقطع يعامل المرأة باحتقار وطريقة جنونية، فهي ليست لها قيمة عنده ترمى إلى الشوارع لأتفه الأسباب كالحيوانات، فهي تتحمل مسؤولية كل شيء الإنجاب، المرض، التعب فبرغم من كل شيء وهي صابرة.

«احترق ابن فاطمة حروق من الدرجة الثانية... وإن جروحه سوف تتعافى مع الوقت وأنا أبكي من حروقي النفسية التي لا شفاء لها ولا دواء.

قبض ناصر ذراعي قبضة مفترس وأدخلني إلى الغرفة: أين كنت؟ ماذا كنت تفعلين؟ ماذا كنت تفعلين؟ كيف تحرقين الولد؟

إنه حدت منزلي وأردد ... صفعني ثم شدني من شعري وبدأ يضرب رأسي على الجدار، وأنا أستنجد لم يأتي أحد لنجدتي! عند الضربة الثالثة سمعت صوت، صوت شيء تكسر في وجهي إنه أنفي!! أغمي علي للحظات والدم يسيل من أنفي».[3]

وكذلك الأولاد لم يسلموا من العنف من طرف آبائهم يتضح لنا هذا في قول الروائية:

---

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: *133*.

[2] هنية مشقوف: العنف ضد المرأة قراءة في روايات فضيلة الفاروق، مجلة المخبر، ص العدد *6*، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، *2010*، *6*.

[3] فيروز رشام: المصدر السّابق. ص: *164*.

«... نبّهتها ألا تخرج من الغرفة وانهمكت في شغلي، كنت أغسل الملابس في الدوش، حينها سمعت صرخها، فجأة بعدما تلقت صفعة من قرط رقبة لم أستطيع الوقوف وبصعوبة جريت نحو الغرفة لأجد ناصر يضربها:

- يا سافلة أنت مثل أمك لا تستحين!

- خلصتها من يديه لينقض علي كي كوحش:

- هذا ما تعلميه لابنتك عوض أن تربّيها وتلبسيها الحجاب!

- إنها طفلة هي تلعب لا أكثر!

ها قد عادت قصة الحجاب من جديد!

أمل تحتمي ورائي، وأنا أحتمي وراء ذراعي. وبعد أن كف عن ضربي تعانقت مع ابنتي، وبكيت كل أوتيت من دموع. فهو لا يحتمل رؤية أحمر الشفاه يلمع على شفتيها، أما أمال فكرهت تلك اللعبة كرهت «أحمر الشفاه !... وكرهت الكعب العالي ... كرهت لعبة العروس ... وكرهت كونها أنثى !!.

هكذا العنف يطمس كل شيء جميل».[1]

هذا العنف موجود فعليا لكنهم تغافلوا عنه لعدة اعتبارات ولعل أهمها: كون الضحية هنا هي المرأة ولقد اتضح هذا من خلال العناصر التي يمكن أن تدفع بالزوج لممارسة العنف على الزوجة في إطار العلاقة الزوجية.

يُعدّ تعنيف الزوجة ظاهرة دخيلة على المجتمع العربي الإسلامي الذي حثنا على ضرورة احترام وتقديس المرأة والحياة الزوجية، كما خص لكل من الزوج والزوجة أدوارا محددة داخل هذه الخلية المصغرة المسماة بالأسرة، أدوارا تتميز بين التكامل والتبادل بين طرفي هذه العلاقة، فلا يوجد أحد أقوى من الآخر أو يتميز عنه باعتبار أن الأسرة هي المسؤول الأول والمباشر عن تصدير جيل صالح نفسيا وفكريا وحتى صحيا للمجتمع.

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 171.

3/ المرأة والإرهاب في الرواية:

ترتبط الرواية بالواقع الاجتماعي، والسياسي، والتاريخي؛ لأنّ نشأتها ارتبطت ارتباطا وثيقا بالمجتمعات، فهي تمثل تحركات الأفراد، وسماتهم، ومختلف جوانب الحياة؛ أي إنّها مرآة عاكسة له بكل تناقضاته، وخاصة في الفترات الدموية التي عاشتها الجزائر فترات أسالت حبر كثير من الكتّاب؛ لتكون الرواية أحسن وسيلة للتعريف بالواقع المرير التي شهدته وتشهده البلاد، بالإضافة إلى كونها مقاومة ...

ومن هذا المنطلق اخترت أن تكون ظاهرة الارهاب جزءا من دراستي، فهي ظاهرة أثارت الكثير من الجدل، ومن بين الأقلام التي كتبت في هذا الشأن نجد فيروز رشام، وقد اخترت راوية «تشرفت برحيلك» التي تعبر عن انكسارات الوطن، وعن انكسار شعب ذاق الأمّرين في ظل الأزمة.

أولا أتطرق إلى تعريف الإرهاب في شقّيه الاصطلاحي واللغوي.

1.3/ مفهوم الإرهاب: يُعدّ الارهاب ظاهرة عالمية عرفتها المجتمعات البشرية كافة بدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة ومغايرة، وباتت تضرب بجذورها في العالم المتقدم والمتخلف على حد سواء، ويكمن الاختلاف بين هذه المجتمعات في أسباب هذه الظاهرة، وفي مدى تطوير آليات وأساليب التعامل معها، وهو ليس سمة لصيقة بمجتمع دون غيره، والجزائر من الدول التي عانت كثيرا من هذه الظاهرة، الأمر الذي منحها خبرة واسعة وتجربة فريدة في مواجهة الإرهاب ومكافحته سواء على المستوى الأمني أو السياسي أو القانوني أو الإنساني.[1]

والإرهابي إنسان متوحش تسبب في قتل العديد من الأبرياء، وحوّل البلاد إلى مجزرة شنيعة، ومسرح مليء بالدم، لذا فإنّ «من يستمع إلى كلمة (إرهاب) أو مشتقاتها أجد أنه أمام كلمة تثير في النفس معنى الخوف أو الخشية أو الرجفة الشديدة، فكثيرا ما نسمعها في حياتنا اليومية حتى تكاد تصبح جزء من مكونات حياتنا اليومية».[2]

---

[1] ينظر: قيس آدم،: آليات المقاربة الجزائرية في مكافحة الارهاب، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد30، جامعة ورقلة، سبتمبر 2017، ص: 513.

[2] ينظر: يوسف ملا، وجمعة الياقوت: الارهاب، الطبعة 01، الأردن، 2010، ص: 01.

1.1.3/ الإرهاب لغة:

ورد في معجم «الصّحاح» لــ **الجوهريّ** (ت *393* هـ) أنّ كلمة الإرهاب «مشتقة من (رهِب) بالكسرة يرهب، رهبة، ورُهبا بالضم والرهب بمعنى أخاف، وترهب غيره إذا توعده، وارهبه ورهبة وأخافه وفزعه ورهب الشيء رهبا ورهبه: خافه والاسم الرهب والرهبي ورهبوت الرهبوتي».[1]

أما في قاموس «المحيط» لـ **الفيروز آبادي** (ت *817* هـ) فقد وردت في باب «الباء»، وفصل «الراء» كلمة ارهاب تشتق من الفعل المزيد ارهب ويقال ارهب فلانا أي خوّفه وفزعه، وهو المعنى نفسه الذي يدل عليه الفعل المضعف رهّب، أما الفعل المجرد من المادة نفسها هو رهب يرهب رهبة ورهبا فيعني خوفا، خاف. أما الفعل المزيد بالتاء وهو ترهب فيعني انقطع للعبادة في صومعته، ويشتق منه الراهب والراهبة والرهبنة والرهبانية الخ، وكذلك يستعمل الفعل ترهب بمعنى توعد إن كان متحديا فقال: نرهب فلانا أي توعده وارهبه واسترهبه أخافه وافزعه، وترهب الرجل أنصار راهب يخشى الله والراهب المتعبد في الصومعة».[2]

وفي معجم «العربي الأساسي» «الإرهاب مصدر أرهب، يرهب، إرهابا: رهبه « ترهبون به عدو الله» إرهابي: جمع: إرهابيون، وصف يطلق على من يسلك سبل العنف والإرهاب لتحقيق أهداف سياسية، أو خاصة.

قام فريق من الارهابيون باختطاف طائرة أمس. حكم إرهابي: حكم يقوم على ارهاب الشعب واستعمال العنف لكبت حريته».[3] الإرهاب نسبة إلى الترهيب؛ أي بمعنى الإخافة والرهبة في اللغة تعني الخوف فقط، وهو يطلق أيضا على من يتخذ العنف سبيلا في تحقيق أهدافه، سواءا الخاصة أو السياسية.

وعليه فإنّ فالمعنى العام لكلمة الإرهابي في المعاجم القديمة ينحصر في **(الإخافة)**، وهو المعنى الأصلي لمادة الكلمة في اللغة القديمة، أما المفاهيم الجديدة لها فتشمل **(العنف والتهديد به)**.

---

[1] اسماعيل بن حماد الجوهري: معجم الصحاح، دار العلم للملايين، بيروت، ط*2*، *1975*.

[2] محمد بن يعقوب: الفيروز أبادي: بتصرف القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، *1987*، ص: *118*.

[3] جماعة من كبار اللغويين العرب: المعجم العربي الأساس، لاروس، الطبعة *01*، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، *1989*، ص*554/555*.

2.1.3/ الإرهاب اصطلاحًا:

ويُعرّف الإرهاب بأنّه «عنف منظم ومتصل بقصد خلق حالة من التهديد العام الموجه إلى دولة أو جماعة سياسية والذي ترتكبه جماعة منظمة بقصد تحقيق أهداف سياسية».[1]

ومن هذا التعريف يبدو أن الملامح الرئيسة للإرهاب تختلف عن غيرها من الجرائم؛ لأنّه وسيلة وليس غاية، وأن الوسائل المستخدمة لتنفيذه عديدة ومتنوعة، وتتميز بالعنف، وتخلق حالة من الفزع والخوف في النفوس، وتهدد سلامة البشرية.

وصلت بشاعة جرائم الإرهاب إلى قطع الرؤوس وتشويه الجثث، نجد أبشع صوره من ذلك، فقد كان القتل مرعبا ووحشيا أمام أعين الناس، فالإرهاب ليس حدثا بسيطا في حياة المجتمع فهو عادة لا يقاس بالمدة التي استغرقها، ولا بعدد الجرائم التي اقترفها، بل بفظاعتها ودرجة وحشيتها، وإذا تعلق الأمر بالجزائر فقد استغرق مدة غير قصيرة، وارتكب جرائم كثيرة وكبيرة، وارتكبها بفظاعة.

«أمين أنظر إلي لقد غبت كل هذا الوقت لم؟

سالت في عينيه دمعتان شفافتان رأيت فيها وجهي، نطق تلميذ من مكانه دون أن يسأله أحد.

آنستي قتل الارهابيون أباه!».[2] شهد الشعب الجزائري أقصى أنواع التنكيل والترهيب، حيث فرضت عليهم مختلف أنواع العنف المادي والمعنوي، وهذا هو حال والد أمين الذي لقي حذفه فيتموا أطفاله فعم الخراب والتدمير.

«أشكال الناس بدأت تتغير نحو شيء غريب سواء في قريتي أو في مدينة بومرداس، يبدو أن إطلاق اللحية ولبس القميص القصير هي موضة الرجال الجديدة مع انتشار أخبار اختطاف البنات، وقطع أرجل من ترتدي سروالا أو قطع رأس من لا تضع خمارًا، بدأ الأولياء يلزمون بناتهم بتغطية الشعر خوفا عليهن».[3]

---

[1] اليمين زرواطي: التجربة الجزائرية في مكافحة الارهاب، الطبعة *01*، مؤسسة المعارف، *2014*، ص: *37*.

[2] فيروز رشام: تشرفت برحيلك. ص: *89*.

[3] المصدر نفسه، ص: *37*.

يبدو جليّا من خلال هذا المقطع أنّ منهجهم كان مباشرا يرمي إلى إثارة الرهبة والرعب، وخلق مناخ من الخوف والهلع بين السكان حتّى يُصبح كابوسا يقظّ مضاجعهم.

«ما هذه الأيام العصيبة الموت يزور بيوت الجزائريين بيتًا بيتًا، ولا أحد يعلم متى سيصل دوره... اليوم نبكي على الموتى وغدًا سنبكي على الأحياء فهمت هذا الدرس مبكرًا أن الضحايا الحقيقيون للارهاب ليس الذين ماتوا وإنما الذين بقوا على قيد الحياة».[1]

فقد استطاعت الروائية تصوير مشهد العنف وتجسيده في الشخصيات الممارس عليها حتى يتمكن القارئ من استيعاب ظاهرة العنف، والاستبداد الذي تعرض اليه الشعب الجزائري في تلك الحقبة السوداء.

وفي مقابل هذا الظلم المسلط على المثقف بصفة خاصة من طرف النظام، يواجه من جهة أخرى سلطة الجماعات المسلحة – الإرهاب- التي مارست عليه مختلف أنواع التعذيب، والعنف، والقهر بكل أبعاده وعمقه، وكذا القتل. فهذا الأخير قد زار معظم بيوت الجزائر ذلك الوقت، ويتضح ذلك في الصورة التي قدمتها الروائية حين تقول:

«جميلة ... عزيزتي لقد خدعوك أعداء الله وخدعونا!

لم نفهم شيء مما قالته لكن تلفظها اسم عزيز جعل جميلة ... تقفز من سريرها وتخرج من الغرفة.

لقد قتلوه ! يا جميلة لقد قتلوه !».[2]

قُتِلَ العريس قبل ثلاثة أيّام من عرسه حينما علم الارهابيون بأنّ هناك شابين من المجندين في الخدمة الوطنية مودودين داخل المقهى، أطلقوا الرصاص عشوائيا على الجميع.

وطبقا لهذا القول نجد أن كل مواطن جزائري يمكن اغتياله، أو يمكن تعريفه على أنه صحبة مستقبلية مهما كانت مهنته وكانت طبقته الاجتماعية، كما نجد ذلك على لسان الساردة (قد اغتيل الكثير من الأشخاص حيث أصبح الارهاب يقضي على كل شيء جميل نجد إلا الموت والعنف، الاغتيال والاغتصاب، تقول الروائية «لا أعراس بقيت ولا أفراح ولا حب.... بدأ الارهاب يقضي على كل

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك. ص: *94*.

[2] المصدر نفسه: ص: *94*.

شيء في الحياة !»؛[1] التأثير البارز للإرهاب على حياة الفرد والمجتمع، فتأثيرها السلبي الذي يوحي بالألم والتمزق والظلم واللاعدالة، سلبوا كل الأمور المفرحة فلم تبقى سوى الدموع.

هكذا كانت موجة الارهاب تزداد وترتفع وملامح المجتمع الجزائري تنحو للتغير ملابسه وعقليته عاداته يومياته كل شيء يتغير يوما بعد يوم نحو الانغلاق والقبح والتعصب من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، فقد أصبح للإرهاب ألف شكل وشكل للوجود، إرهاب الإرهاب، إرهاب الأزواج، إرهاب الإخوان، وغيرهم.

3.1.3/ الشخصية الإرهابية:

ترد الشخصية الإرهابيّة في هيئة شخصية غير محددة الملامح كثيرا داخل الرواية، فلا نجد لها وصفا دقيقا من ناحية الأساليب والمناهج التي اتخذتها في ترهيب الناس غير القتل بالرصاص، وكذلك لم تتطرق إلى مسرح العمليات فهي لم تحدد ولم تقيد لا بأسماء ولا بأوصاف، فهي ظلال تتسلل وتختفي خلف ضحاياها في لمح البصر.

أشارت الروائية إلى الشخصية الإرهابية، بمصطلحات عديدة وكثيرة استعملت إبان التسعينات كالمسلحون، المعارضون والمتمردون، كلها تسميات لا تهم بقدر ما تهم طبيعة أفعالهم وممارستهم الإجرامية وكذا حرص الروائية على الإشارة إلى الشخصية الإرهابية، بكونها تلك الشخصية التي تمارس الاستعلاء في المجتمع وتعطي لنفسها الأحقية في تصنيف الأشخاص كرجال الدولة «رجال الخدمة الوطنية، الشرطة والدرك الوطني» على أنهم خطر على المجتمع، ويجب اقتلاعهم.

والملاحظ أيضا أنّ الروائية قد تركت الشخصية الإرهابية غامضة مجهولة الهوية مفتوحة على الاحتمالات والتّكهنات المختلفة، فالإرهابي يمكن أن يكون الجار، العم، الصديق، الزميل، كما هو الحال مع أخويها رشيد وفؤاد وزوجها ناصر، وأخوه فاتح. فهي لم تهتم بإعطاءه شكلا معيّنا بقدر ما حرصت على تصوير أفعاله وأساليبه، أثناء ممارسته للفعل الإجرامي.

كما عمدت الروائية إلى تجسيد بعض خصائص الفكر الارهابي وأساليبه، نحو: استغلال الدين عموما لتبرير أعماله، والتّحجج بالإسلام والقرآن والحديث؛ أي إنّهم يبرّر كل أعماله، وينسبها

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: *94*.

للإسلام تكون، ومثال ذلك حديثها عن رشيد الّذي «أصبح يفتي في كل شيء هذا حرام وهذا حلال، اشترى لزوجته جلبابا ونقابا مع أنها لم تكن محجبة أصلاً».[1]

تدلي فاطمة الزهراء أن أخاها قد أصبح فقيها وعالما بالدين، فهو أصبح يطلق الأحكام هذا حلال وهذا حرام، رغما عن هذا فقد قام بشراء جلباب –لباس نساء الإخوة المسلمين– رغم أن قبل هذا لم تكن تضع الحجاب وكذا أصبح يطبق القوانين على أخته سعاد كذلك:

«أنت أيضا معنية، إياك أن تخرجي بدون خمار بعد اليوم وإلا سوف أقطع رجليك إن وجدتك في الخارج مرة أخرى....

أقطع رأسك... أقطع رجليك ... عبارات حسبانها دائما ضربا من المجاز، لكن الأخبار التي تصلنا من هنا ومن هنا تؤكد أنهم يقطعونها فعلاً !!».[2] القطع والضرب والقتل أفعال حقيقية تعيشها جل فتيات الجزائر في ذلك الوقت المرير، رغم أنهم كانوا يعتقدون أن هذا الإرهاب ليس له أساس من الصحة.

أصبحت حياة فاطمة وأختها جحيم منذ ظهور الإخوان المسلحين وتيارهم؛ حيث كان من حقهما ألا يرتديان الحجاب إلا أن السلطة التي يتمتع بها أخويهما، كانت أقوى من إصرارهما، رغم أن أبيهما واقفا في صفهما، إلا أن هذا لم يشفع لهما.

وكذا التشدد في ميزة الحلال والحرام يتضح ذلك من خلال المقطع التالي:

«دخل أبي وعمي عمر:

– ما المشكلة إن لبست العروس فستانا أبيض فأبي لم يكن يعرف أن فستان العروس أسود لدى السلفين ! صدمة الاكتشاف لأن هذا لم يكن من تقاليدنا إطلاق فهو حرام، حرام».[3]

تقول حميدة: «اسمعين جيدا ... ستزفين إلى بيت زوجك بالجلباب والنقاب، كما فعلت أنا أنت ذاهبة إلى بيت إمام أم أنك نسيت هذا».[4]

---

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك. ص: *40*.

[2] المصدر نفسه. ص: *39*.

[3] المصدر نفسه. ص: *124*.

[4] المصدر نفسه: ص: *123*.

كان هذا عن الإرهاب في بيت فاطمة الزهراء الّتي هربت من أخويها لتقع في شرك زوجها، ناصر وأخوه الأمير «يا ويلي هذه المصيبة مصيبة المصائب باعوني في الجبل الارهابي مثلهم»،[1] كانت ظروف معيشة فاطمة صعبة جدا.

4.1.3/ بين الإرهاب والعنف:

إن كان الإرهاب مصطلحا حديثا، فإن العنف قديم قدم الإنسان، منذ أن خلق الله ﷻ الكون، ويرى كثيرون أن الفرق بينهما يكمن في كون الإرهاب ذا صلة بالأهداف السياسية، والعنف كونه يعتبر ذو صلة بالأهداف النفسية والجسمانية، ويعتبر الخوف والرعب هما الوسيلتان الأساسيتان في تحقيق مبتغاهم.

وإذا كان العنف ينطوي على الرغبة في إخضاع الآخر، وتخويفه، وإلحاق الأذى به، فإن الإرهاب هو نمط من أنماط العنف يلجأ إليه الخارجون عن نظام الحكم، أو المتمردون على السلطة، أو الحزب الحاكم، وهو شكل غير قانوني، وغير أخلاقي لا مبرّر له، ويسعى الإرهاب إلى تحقيق أهداف سياسية، لذا يُعدّ العنف أهم مظاهره ووسائله، فالهدف الذي يحرك الإرهابيين ليس ارتكاب الجرائم، وإنما إشاعة الرعب والخوف في نفس كل مواطن.

انطلاقا ممّا سبق يتّضح أنّ الارهاب هو أكثر شمولية من العنف، والذي يُعدّ عاملا من العوامل الأساسية له.

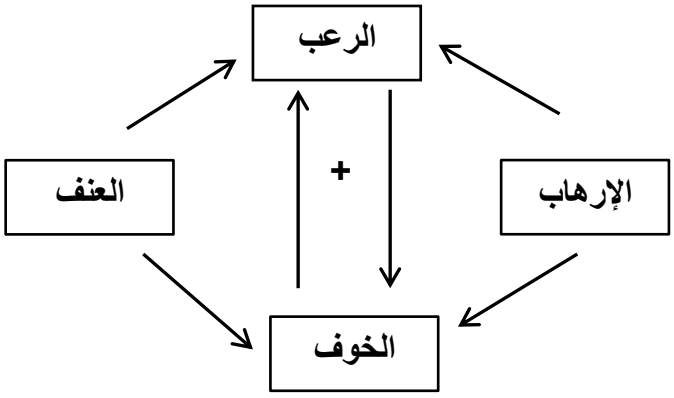

علاقة الإرهاب بالعنف

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك. ص:97.

4/ المرأة والجنس في الرواية:

يرتبط الجنس من الوجهة الإسلامية بفكرة ارتكاب الخطيئة خارج الزواج الشرعي، هذا هو المفروض في الدين الإسلامي فشرف الفتاة في المجتمعات العربية يعتبر كملك عائلي، فهو يخص الأخ والأب والعم والخال، كما يرتبط ارتباطا مباشرا بالجنس الذي يبيحه مجتمعنا العربي، فإن ذلك بمنتهى الصعوبة في يومنا هذا، بسبب تأثير الحياة العصرية، وما جلبته من مصاعب مادية وأفكار جديدة، وإزاء هذه الحالة يصبح الكبت والحرمان الجنسي من أهم المشاكل التي تتعرض لها الفتاة حاليا، وتعتبر هي المتضرر الأول في هذه المشكلة؛ إذ تنعكس على كل السلبيات.

الرجل يرى حاجته عند المرأة، فلا يمكن أن يهم بها دون أن يسأل صاحبتها، ما لم يرد اغتصابها بغير ذلك يبقى محروما فالجنس ملتحم في صاحبه.

فهنا في الرواية نرى الروائية تتحدث بلسان العبدة التي انقلب عليها الأبيض إلى الأسود.

ففي الرواية نجد أن فاطمة الزهراء حالة من الحالات التي تعاني من الاغتصاب الزّوجي، أي ما يعرف بإجبار الزوجة على ممارسة العلاقة الحميمية الطبيعية المألوفة بينها وبين زوجها في العلاقة الطبيعية على كل المتزوجين أن يتذكروا أن الاغتصاب هو الجنس بالإكراه أو الجنس القسري، أي لا يكون عند المرأة موافقتها على الجنس بحرية أو لا تكون قادرة على ذلك لكنها تجبر، فهم يعتقدون أن الزواج يسمح لهم بممارسة الجنس ساعة يشاؤون مع نسائهم «إنها زوجته عليها ممارسة الجنس معه في كل حين»، الفكرة التي يقنعون بها.

قد تبدو فكرة «زوجي اغتصبني» غريبة على مسامع الرجال ومستهجنة، بل مرفوضة فلا يعترف الرجال بوجود اغتصاب في العلاقة الزوجية، ويعتقدون أن العلاقة الجنسية واجبة على الزوجة متى طلبها زوجها، حيث يعتبر الاغتصاب الروحي فهو جزء لا يتجزأ من العنف الأسري.

فالجنس هو نوع من الرد الحسي الفطري يمارس لأسباب عديدة مثل: الإنجاب، والتعبير عن العشق، والاستمتاع حتّى تشبع الشهوة، الشهوة الحسيّة، وهو أحد الدوافع الأساسية لسلوك الإنسان، لكل ثقافة أنواع عديدة من الأساليب كي يصل الإنسان إلى الجنس، وهذا ما كانت تعتقده فاطمة الزهراء كغيرها من النساء لكن العكس تماما ما حدث معها في بيت الزوجية مع زوجها المناصر

للجنس؛ لأنها تقول «في السرير لا أزال على نفس الريتم يعريني، يعتليني ثم يغتالني، لا شيء سوى الوجع والخوف... حسبت الجنس أمتع من هذا لا قبل ولا عناق (...) طبعا ليس هناك شهر عسل في البرنامج ولا لحظة عسل فقط أيام مرّة مرارة العلقم».[1]

هكذا نجد حياة فاطمة تزداد مرارة مع الاغتصاب أو ما يسمى بالعنف الجنسي فهو لا يراعي مشاعرها ولا رغبتها، فهو لا يعمد إلى تلطيف الجو معها أو المداعبة أو حتى معاملتها كزوجة حتى أنه لم يحسن معاملتها وهذا من الليلة الأولى كما يطلق عليها ليلة الدخلة، أو ليلة العمر تقول: «سعل، دخل، جلس نظر إلي نهض وغيّر ملابسه عاد، اقترب، اقترب أكثر أطفأ النور، عراني، اعتلاني، أغلق فمي، اغتالني!!!».[2]

ففي المثالين يجد القارئ نفسه أمام موضوع رغبة جنسية حيوانية أو شهوة، متمثّلة في ممارسة جنسية ضد رغبة الضحية؛ أي إن الرفض ليس أمرا واردا مطلقا، فهو لا يحب سماع قول كلمة لا، وإلا تتعرض للعنف الجسدي، وعليه فلا خيار لها إلاّ الخضوع، ولا يهم إن كانت مرهقة أو مريضة، هنا السؤال المطروح: ما الفرق بين الزواج الشرعي والإغارة، إذا كان الزواج مؤسسة اجتماعية تقوم على إذلال المرأة وليس عشا للسكينة والرحمة كما يقره الدين الصحيح؟

أنهك العنف الزوجي فاطمة لسنوات عديدة ومتواصلة والدليل أنها أنجبت أربعة أطفال لا فارق بينهم في السن، فهي خاضعة لقوانين مجتمع ذكوري تعيش تحت رحمة ناصر الذي يعمد إلى استغلالها متى شاء.

تقول: «مرة تذمرت من عنفه وسرعته وبخجل حاولت القول له إنه عنيف جدا وسريع جدا، وإني أود لو يحضنني أو يقبلني لو يحاور جسدي قليلا ... بمنتهى الحياء قلت له وأنا أدفع به عني وهو يعتليني: تمهل، تمهل لو تضمني أو تقبلني قليلا ربما يخف هذا الوجع!

استغرب جرأتي ولم يحبها أبدا، وكمن يحاول التقبيل ولا يريد ذلك، دنا مني ووضع شفتيه على جانب فمي للحظة وسحبها وقال: أنا لا أحب التقبيل».[3]

---

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: *131*.

[2] المصدر نفسه، ص: *128*.

[3] المصدر نفسه، ص: *142*.

فالعنف كان مرفوضا من طرف فاطمة الزهراء إلا أنها ليست لها حل آخر إلا المضاجعة فهي مجبرة وليست مخيرة، فهنا عليها إلا تقبيله كما هو وسط مجتمع ذكوري السلطة للذكر، وإلغاء الأنثى فالغاية فقط الاشباع الجنسي.

5/ المرأة والجسد في الرواية:

1.5/ . تعريف الجسد:

يُحيل مفهوم الجسد لغة على الاتصال مع العالم الخارجي، فهو وعاء للروح ذو طبيعة أولية متعدد الدلالات والوظائف، يتميز بخصائص فيزيولوجية معينة، حسب طبيعة جنسه، فالجسد لا يملك الحقيقة ولكنه يملك تاريخا حيث أن المتتبع للموروث الثقافي يجد ويؤكد ما لعبه الجسد من دور في جل الأعمال وتعددت أسماؤه حسب طبيعة الموضوع (الجسم والبدن).

كما كان للجسد حضورا أيضا في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية حول التكوينات الفيزيولوجية له من بدأ الخلق. وهذا الحديث عن النكاح لقوله ﷻ: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾، [سورة القيامة، الآيات: *36– 39*].

ومن جسد ذكوري آدمي خلق جسد أنثوي حوائي ليكونا معا، كنّه الكائن الحي الإنساني والذي تحقق وجوده بعامل إدراكي ونفسي واجتماعي.

الجسم يحمل العديد من المعاني، ففي «القاموس المحيط» أجد أنّ «الجسم هو جسم الإنسان والجن والملائكة»،[1] أمّا **أبو هلال العسكري** (ت *395* هـ) فقد ذكر في معجم الفروق اللّغويّة أنّ «الجسد لا ينطبق إلا مع الحيوان العاق؛ أي على الإنسان، وعلى الجن والملائكة، وأنه الشكل الذي يطرأ عليه الجسم يمكن أن يكون ملاكا من نور أو جنا من نار أو تمثيل أو خيال».[2]

«في حين ذهب محمد عناني إلى اعتبار الجسد في تصويره الجنسي كنص يتمثل في امرأة ويرجع أن معاملة المرأة في اللغة والأدب باعتبارها كائن جنسي فقط، فغاية الكتابة بذلك تصبح مجرد إبراز

[1] محمد بن يعقوب، الفيروز أبادي: القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، الجزء*4*، ص: *201*.

[2] أبو هلال العسكري: الفروق في اللغة، معراج الشوق، ط*1*، جزء *3*، ص:*87*.

للأنوثة الصارخة بشقيها المعلن والمضمر، ويصبح الفن صدى لرغبات دفينة حتى ولو تناقص ذلك مع المجتمع».[1]

الجسد هو الصورة التي تنتج عن تجسيد الجسم الإنساني؛ فإن الطابع الاجتماعي للجسم أصبح يساوي الجسد، وهو طابع تصعب إزالته و«مفهوم صورة الجسد يتكئ على ما يسمى بالأنا الذي يمارس فعلها عليه، ويحاول التحكم فيه بدافع الغريزة، وانطلاقا من هذا يمكن اعتبار الجسد هو الناتج، فالجسد إذن معطى أولي، إنه موضوع يشكل منبع الحياة والحركة والفعل والوعي، وهو مكتسب قبلي وإن النفس مبدأ محرك للجسد، وهي القوة الحياتية المحرّكة».[2]

ارتبط الأدب بالجسد ليتكلم غيره من خلال جماله ومحاسنه ومسكونه ليتناول قضايا هامة، فقد أخذت الرواية الجسد الأنثوي موضوعا رئيسيا، واستطاع أن يكون هو الوحيد القادر على التعبير عما يريده الروائي الذي يحمل من وراء توظيف موضوعه ايديولوجية معينة، يروح إبلاغها إلى الملتقى من خلال هذا الجسد الذي اختاره ويعكسه بأبعاد فيزيولوجية ونفسية وصولا إلى خلفيات اجتماعية وسياسية.

فمدلول الجسد في الرواية ينتقل من البساطة إلى التعقيد ليدخل في صراع، بغية تفسير معاني القمع والكبت الجسدي، وإن الرجل ينظر إلى المرآة على أنها مجرد حضور جسدي طامح للتحرر من القيود حيث تبرز أهمية تحرر الجسد في البحث عن الحب الذي يجعل الجسد الأنثوي داخل الرواية يتنوع من الرواية حسب رغبة المرأة في تحقيق ذاتها وقد تلجأ في أحيان أخرى إلى الاتصال الجسدي تحت فعل القهر. في الأغلب، كما حدث لفاطمة: «وفي السرير لا أزال على نفس الريتم يعريني، يعتليني ثم يغتالني لا شيء سوى الوجع والقرف».[3]

فهنا نرى أن الجسد بالنسبة للآخر هو جسد قائم من أجله فدلالة الجسد لا تتحقق إلا بهذه التجربة الغيرية التي تخترقه ويسعى هو اليها عبر الأحاسيس والعواطف، لكن هذا خلافا لناصر الذي

---

[1] محمد عناني: معجم المصطلحات الأدبية الحديثة، ط2، الشركة المصرية للنشر، مصر، 1997، ص: 75.

[2] فريد الزاهي: الجسد والصورة والمقدس، ط1، افريقيا الشرق والمغرب، 1999، ص: 22.

[3] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: 142.

كان يهمل كل الأحاسيس والعواطف والمشاعر فهو كان هدفه فقط إشباع رغبته الجنسية لا أكثر ولا أقل، لا يهتم لشيء آخر خلاف لهذا الفكر الجهلي.

وهنا يتحول جسد المرأة عنده إلى رمز سيء، فالجسد الجميل يستعبد واصفه ويأسره، فهنا ناصر لم يحسن قراءة المرأة ليس؛ لأنه لا يريد ذلك، وإنما أنه لا يستطيع، ولا يسمح له رصيده الثقافي الذكوري بأن يفهم المرأة، ... أن الرجل مهما بلغت قدرته الابداعية فإنه لا يصل إلى حد من حدود كشفه أسرار جسد الأنثى، فهو عاجز عن فهم المعاني الحقيقية للأنوثة تقول: «تمهل تمهل لو تضمني أو تقبلني قليلا ربما يخف هذا الوجع استغرب... ولم يحبها أبدا وبدأ كمن يحاول تقبيلي ولا يريد ذلك، دنا من منى قليلا ووضع شفتيه على جانب فمي للحظة وسحبها».[1] تُخبر فاطمة الزهراء أن ناصر ليس لديه رغبة في تقبيل فاطمة إنما عدم استطاعته فرصيده في تفحص جسد فاطمة لا يسمح له... نظرته لزوجته إنها مجرد أداة للمتعة خاضعة دائما لسلطة الذكر، فالمرأة عنده مجرد كتلة لحمية لممارسة الرغبة الجنسية.

جسدت فاطمة الزهراء موضوع الجسد المغتصب حينما تستنكر واصفة: «يعريني يعتليني يغتالني» في أكثر من موضع من الرواية، هكذا لخصت فاطمة الزهراء حياتها الزوجية في ثلاث كلمات، حياة زوجية متوحشة فهي كل يوم تعاني الاغتصاب، فهو يوما لم يحسسها أنها أنثى ولم يحدّثها عن ملامحها وعن جمالها ولا عن أنوثتها.

كما ظهرت – من خلال الرّواية – مكبوتات دفينة عند فاطمة تُفصح على رغبة جنسية مقموعة، فشدة الغريزة الشهوانية عند الإنسان تؤدي به إلى أن ينتقل إلى عالم آخر ينتقل من طوره البشري إلى طور آخر حيواني يذهب به العقل إلى عوالم أخرى.

وبعد هذا تدخل فاطمة الزهراء في مرحلة تتجرّد فيها من الإنسانية، وفقدان الإحساس، إلى أن تصل لمرحلة فقدان الرغبة في العيش؛ لأنّ زواجها كان سجنا في نظرها نتيجة ما تحمّلته خلال تلك الفترة من مرارة الأوجاع والهموم، كان العذاب يحاصر فاطمة من كل الجوانب، ومن شدة معاناتها أصيبت بالشلل ثم السرطان ومع ذلك واصل زوجها عقابه لها، ومن شدة بغضه لها كان فقط ينتظر موتها تصف فاطمة الزّهراء حالتها وقت اكتشافها لإصابتها بالشّلل قائلة: «رن المنبه بجانبي أفقت

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: *142-143*.

وحاولت مد يدي اليها لكنها لم تمد ظل يرن ويرن استيقظ إسلام وبدأ يبكي دفعني ناصر بقوة وهزني عدة مرات، لم أستجب فناداني متنفرا لكن لا حراك لي اشعل النور وأسكت المنبه اللعين... هزني دون أن ينظر الي في البداية وهي اللحظة التي أرى فيها فمي معوجا نحو جانب واحد وعيني مغمضة وخدي مدفون لا حراك لا يمينا ولا شمالا أدرك وقد أدركت قبله أنني شللت».[1]

تدور تساؤلات في عمق فاطمة فهي جميلة وبهية، ولكن زوجها فهو لا يرى فيها إلاّ مصدرا لإشباع غرائزه الحيوانيّة، حيث تقول: «غيرته التي لا معنى لها قضت على جميع ملامحي، ملامح جمالي وأنوثتي، لم أسمع منه يوما مجاملة لا تعزل بشعري الذهبي الذي ينسدل كالسنابل على ظهري ولا ضمني إلى صدره».[2]

تستمر معاناة فاطمة لتصاب بالمرض الخبيث أو ما يسمى بالسرطان –سرطان الثدي– فجسدها قد أتعب من الهموم والمشاكل والأحزان تقول: «شيء ما يتكور في صدري ويكبر، وربما قلبي ليس بخير وأنا دائمة الشك أن قلبي مريض، لكن لا وقت لدي ولا مال لا فحص... من حين لآخر أشعر بوخز كضربة كهرباء خفيفة في الجهة اليسرى، ولم يتبين لي بالضبط مصدره، في لحظة خاطفة تفحصت قلبي بيدي ثم أخرجت نهدي وتأملته لا شيء غير عادي، نهد حزين يتدلى نحو الأسفل بعدما كان منتصب إلى السماء لقد ضاع دوره وضاع شبابه لم يغازله أحد بعدما أدى دور الأمومة على حساب الأنوثة... بعد أسابيع انتفخ النهد وشدني فيه آلام رهيب، أخذني ناصر إلى الطبيب متذمرا... طلبت مني الطبيبة إجراء الماموغرافي في مركز الأشعة....

يؤسفني سيدتي أن أخبرك بأن لديك ورم خبيث أعني أنه سرطان الثدي، ما إن سمعت كلمة سرطان حتى أغمي علي وسقطت فوق الأرض»،[3] لخصت فاطمة حياتها بأنها مأساة من البداية حتى النهاية مع المرض فهي دائما كانت تعتقد أن قلبها مريض، وليست مصابة بمرض خبيث، لكن لا وقت لديها فهي منشغلة بالعمل ولا مال لها؛ لأن زوجها يأخذ راتبها الشهري، فقد أخذ المرض نصيب من نهدها الذي ضاع دوره وشبابه إلا في دور الأمومة لا الأنوثة.

---

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: *175–176*.

[2] المصدر نفسه، ص: *140*.

[3] المصدر نفسه، ص: *186*.

تقول: «استقبلت عام *2004* بالعلاج الكيميائي فقدت وزني وشعري. واصفررت وذبلت كورقة خريف مت وشبعت موتا، ومع ذلك ما زلت على قيد الحياة من عطلة مرضية لأخرى، أقضي الساعات الطويلة ممددة بين الآلات والآهات، وبعد سنة تقريبا مع العلاج الكيميائي الذي جاء متأخرا استأصلت الورم في مستشفى البليدة».[1]

تعكس الرواية معظم الصور التي تصور طبيعة أنثوية جسد المرأة، وأنه لا مجال ليكون الجسد الأنثوي، فالمرأة لا تشعر بأنوثتها إلا إذا عكسها الطرف الذكوري، هكذا هو حال هو فاطمة الزهراء التي اكتملت صورتها من دون وصف صدرها والاستحسان به إلا من المرض ، فالروائية تحدثت عن الدور الطبيعي للنهد إلا في إرضاع الأطفال، أما عن الجانب الجنسي وما يتبعه من إقامة العلاقة مع المرأة فهو غائب. وما يتبعه من إقامة علاقة مع المرأة على أساس التمتع.

... هكذا يظهر الباطل في أحلى صورة له فتصبح الحياة الزوجية هي الشهوة الذميمة التي يعتز عنها، وتصبح العلاقة هي التي تبكي المرأة الجميلة، وهنا ينتبه الحق ويفيق مهما كان نومه عميق، ليتأثر من الباطل ولتدخل الحياة الزوجية خيانة المرأة للرجل، تستحضر فاطمة صورة فتتمنى أن من كان يعتليها هو طارق فتصبح علاقة العشق هي الصحيحة السليمة تقول: «كالعادة راح يدخل ويخرج بلا قبلة بلا ضمة ولا لمسة، كالعادة أيضا سبقه خيال طارق لاعتلائي ومن فرط ما غصت في خيالي واستقت لطارق ضممته بقوة وفي لحظة لاوعي تأوهت من النشوة التي صنعها في خيالي وتأدبت في داخلي طارق وإذا بصوت قد انفجر».[2]

شغلت قضية السفور والحجاب العالم الإسلامي، ولاتزال تشغله؛ حيث انقسم الناس بي دعاة للسّفور والتحرّر، ودعاة للالتزام باللباس الشّرعي، ولم تنته القضية في بلادنا فالسفور يطول، ويحرص على اتّباع الموضة تشتد الزينة فكانت الملابس بين الجينز والتنانير الشائعة أنذاك، وقت التسعينيات كما هو الحال عند فاطمة الزهراء والتي كانت لا تضع الخمار، تقول: «كنت أستعد للذهاب إلى الثانوية ذات صباح من شهر أفريل لبست كعادتي سروالا وبلوزة بأكمام وفوقها مئزر وردي

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: *153*.

[2] المصدر نفسه، ص: *153*.

مشطت شعري الذي يصل إلى وسط ظهري واكتفيت برفعه قليلا على الجانبين لأنني أحب ذلك الإحساس عندما تهب النسمات وتحمل خصلات شعري يطير»؛[1] تدلي فاطمة الزهراء أن التعري لم يكن من سماتهم وعاداتهم ولا الحجاب كذلك وصدفة بين ليلة وضحاها تغير أشكال الناس وطريقة لباسهم، أصبح ارتداء الحجاب موضة ليس رغبة فيه وإنما خوفا من الإرهاب الذي أصبح يفرض قوانين على الشعب، هو بدل النظام، ويفرض عقوبات صارمة كقطع أرجل من تلبس السروال، وقطع رأس من لا تلبس الحجاب، في حين قبل تلك الحقبة بقليل كان جل ملابس النساء السراويل والبلوزات وغيرهم، فقط يكون اللباس محتشم، وغير فاضح لم يكن للحجاب أي معنى قبل ذلك غير أن التستر واجب.

أشارت الروائية إلى هذه النقاط لبيان سطو التقاليد الإرهابية التي تنظر إلى المرأة بنظرة دونية، وهم يعتقدون أن المرأة بعيدة كل البعد عن الثقافة الدينية، والمناهج التعليمية والأخلاق...

والأخلاق الحسنة التي يحث عليها، واتخذوا العديد من الآيات القرآنية شعارا لهم كمثل قول الله ﷻ: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾، [سورة النور، الآية: *31*].

بدأت في هذه المرحلة العصيبة قضية الحجاب تطفو على السطح، وتثار من قبل الإرهابين؛ لأنهم وجدوا في الحجاب مدخل نحو قضايا المرأة، وكذا قضايا عديدة ذات صلة بالإسلام، وعلاقته بالآخر فهنا أخذ الإرهاب على عاتقه دور الإعلام والدعاية، فمن يقف في وجوههم – الإرهاب- ولا يرضخ لأوامرهم يكون مصيره القتل الأكيد، فهم ذئاب بشرية لا ترحم أحدا فتلك الفتاوى التي كانوا ينشرونها، فهي مغلوطة، ومتشبعة بأفكار تكفيرية وتتلون... ويمكن لأي ارهابي أن يشتغل كمفتٍ، أو إمامٍ يتذرع، ويحكم بفساد النظام وهكذا هو الحال مع قضية الحجاب الذي وجدوا فيها مخرج يشرعون، ويفتون بضرورة ارتداء الحجاب، ومن تعارض فتواهم تلقى حذفها تماما كما هو الحال مع رجال الدولة، ورجال النظام و... الذين عارضوا فتواهم، تقول: «يبدو أن إطلاق اللحية وليس القميص القصير هي موضة الرجال الجديدة، مع انتشار أخبار اختطاف البنات وقطع الرأس من لا

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص:*37*.

تضع الخمار»،[1] هكذا كانت البوادر الأولى إطلاق اللحي ولبس القميص القصير للرجال إبان ظهوره وكذا أنهم ينتهجون طرق بشعة كالاختطاف، وقطع رؤوس البنات وغيرهم.

تقول: «أما الجلباب فلا أدري من صمم ذلك الزي وأدخله إلى ثقافتنا كنا نستغربه جدا ونضحك على من تلبس هذه الخيمة كما يسميها البعض، أول مرة رأيت فيها الجلباب كانت في قريتنا، لبسته زوجة الإمام السلفي الجديد»،[2] تزداد قضية الحجاب في الانتشار، والتوسّع لتصل عند فاطمة الزهراء بأمر من أخوها، فهي مجبرة لا مخيّرة بارتدائه، تقول الروائية «وأنا أتهيأ للخروج عندما وجدت نفسي وجها لوجه مع فؤاد نظر إلي من الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى كأنه يراني لأول مرة:

- عودي وغيّري ملابسك!

- ماذا؟ !

- قلت عودي والبسي لباسا محتشما ومستورا.

- ما به لباسي؟ إنه مستور.

- اذهبي وغطي شعرك قبل أن أقطع لك رأسك.

- أغطي شعري ولماذا؟ لن أفعل.

جريت نحو الباب لأغادر لكنه لحقني وشدني من شعري، جرني من فناء الدار إلى مدخل البيت وانهال علي باللكمات والركلات.

- قلت تحجبي ألا تفهمين ألا تخافين من أحد».[3]

تنتشر قضية الحجاب تحت ما يسمى بالحجاب الأفغاني، بغرض تعميم الإسلام، والقيم الدينية، فمثلا زوجة فؤاد أصبحت متجلببة اشترى لها جلبابا ونقابًا، مع أنها لم تكن محجبة أصلا. تقول فاطمة: «عندما هممت خديجة بالخروج متجلببة منقبة أول مرة، علقت عليها جميلة ساخرة:

- ما هذا اللباس المخيف؟

فردت عليها:

---

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: *37*.

[2] المصدر نفسه، ص: *37*.

[3] المصدر نفسه، ص: *38*.

- هذا هو اللباس الشرعي لو كنتي تعرفين الدين».[1]

أصبحت زوجة فؤاد خديجة مفتية هي كذلك، حالها حال زوجها يتكلمون عن الله والإسلام، كمن يعتنقون الإسلام لأول مرة.

أمّا الرجال فقد تغير عندهم كل شيء؛ حيث أصبح طرح اللحية شيئا واجبا، والتّقصير أيضا، حتّى تغيرت ملامحهم تماما، فتقول فاطمة: «لحية سوداء طويلة ومتوحشة، شامة دائرية كبيرة تميل إلى الوسط وسط الجبين طفر أصبع الخنصر الأيمن والأيسر طويل وحاد كسكين نظرة ماكرة خبيثة، لعينين تظللها من فوق حواجب مبعثرة وكثيفة ومن تحت تغرقان في هالات سوداء عميقة، إن كان هذا عريس فالموت أرحم لي».[2]

بيعت فاطمة الزهراء بين الإرهابيين، الهروب من الإرهابيين فؤاد ورشيد لتقع في شباك ناصر ذلك الإرهاب الأكثر عنفا من الآخرين، والمتسلط الملتزم قضية الحجاب لا الحصر المتشدد في جميع مجالات الحياة، «قبل نهاية الأسبوع الأول من العمل كان قد حرم علي كل مصادر البهجة، والجمال لا تنظري لأحد، لا تتكلمي مع أحد، لا تلبسي هذا، لا تتزيني، لا تتعطري، لا ... لا ... بعد أيام قليلة تغير مظهري تماما، فالسروال ممنوع والكعب ممنوع، والعطر والكحل والماكياج ممنوع، كل شيء قد يشي بجمالي وأنوثتي ممنوع، أمشي فقط ورائه وهي يجرني، بحبل الزوجية».[3]

«أخذني إلى أقرب محل اشترى لي أول حجاب طويل وعريض صادفه لم أجربه حتى وبالتأكيد لم أتكلم مع البائع أو أنظر إليه»،[4] عاشت فاطمة الزهراء مكسورة الخاطر، فلم ترتدي يوما ثوبا مهذبًا أو ملونا ما ترتديه كل النساء، اللباس الطويل والعريض والألوان الداكنة.

«فالجسد -إذن- في الرواية كان عنصرا محفزا لإثارة الأحداث، واشتغال الذاكرة باعتبارها المرجعية التي تثبت الكينونة، إذا هو يمثل فضاء عنكبوتيا تمتد خيوطه بين كل العوالم السردية؛ حيث

---

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: 40-41.

[2] المصدر نفسه. ص: 101.

[3] المصدر نفسه، ص: 139.

[4] المصدر نفسه، ص: 139.

نجد أن جغرافيته هي جغرافية النص، واستبطان الجسد الأنثوي هو استبطان الفضاء النصي وتمثل لخصائصه».[1]

6-المرأة والحب:

لا تخلو الحياة عن الحب بوصفه مقوما من مقوماتها يقوم بدور هام وضروري، وخاصة بالنسبة للمرأة، فهو يعتبر المنظم لأمورها والمبرر لوجودها، فقد تعددت قصصه وتنامت سروده واتسعت ثقافة الإنسان فيه، لتفتح المجال لحكاياته وكذا اعتبر الحب وتيمة مهمة في الكتابة، والتي أعطت للرواية أهمية.

الحب عند المرأة ضرورة عبرها تحقق ذاتها، وتستشعر كينونتها؛ فالحب هو جزء تحرير النفس على خلاف المجتمع العربي الذي يرى أن الحب لا يخرج عن دائرة الأسرة والحياة الزوجية، ولا يمكن أن تحب الفتاة كي لا ينال منها وتجلب العار، باسم الحب على عكس الرجل له، الذي له الحق في الحب.

تسرد فاطمة الزهراء جميع أحداث الرواية من الألف إلى نهاية الرواية، تتكلم بلغة الأنا تبوح بالحب والكره، الشفقة والقسوة، بالرغم من كل الآلام التي طغت على صفحات الرواية، إلا أن الحب كان فيها عنصرا بارزا فيها أعطت قيمة كبيرة للحب في حياتها، لأنها تعي قيمته جيدا وكيفية الحفاظ عليه.

يُعدّ الحب الأول هو ذلك التي تشعر به الفتاة تجاه والدها، ففي الرواية أولت اهتماما لوالدها حب كبير وهادف، فوجدت في والدها سندا ودعما لها بها في حياتها فهو كان يقف إلى جانبها ويدافع عنها ضد بطش أخويها، تقول: «لولا أبي رده عن لقتلني»،[2] كان يحاول معارضة أخويها والدخول في حرب ضدّهما دفاعا عنها وهو يسعى إلى توضيح رابطته بها، وأنها ابنته وهو المسؤول الأول عنها، وعلى أنه المسيّر الوحيد وصاحب القرارات لا أخويها، تُصرّح فاطمة الزّهراء قائلة: «لم أذهب إلى الثانوية ذلك الصباح، وعندما جاء أبي وقت أخبرته بما حدث:

[1] الأخضر بن السائح: سرد الجسد وغواية اللغة، عالم الكتب الحديثة، ط1، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، 2000، ص128.

[2] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: 34.

لا تقلقي فأنت ابنتي وأنا من يقرر وليس فؤاد، أو رشيد إذهبي لتدرسي وفي المساء سوف أتفاهم معهم»،[1] يسعى الأب دائما إلى زرع الثقة في نفس فاطمة، فهو رجل يقدس العلم رغم كونه محدود التعليم يحثها على العلم والمعرفة، والاهتمام بدراستها بدلا من الأقوال التي تملى عليها، من طرف أخويها يقف دائما خلفها مساعدا إياها، لتخطي ومواجهة مشاكل فؤاد ورشيد.

ثم لتنتقل فاطمة إلى مرحلة المراهقة –فترة الثانوية– وكمراهقين نبحث عن الحب والمصاحبة وهذه المرحلة الجنسية الطبيعة في نمو الإنسان، كراشدين نبحث عن الحب عند الجنس الآخر، وأنه ما يتوقع الإنسان الحصول عليه في علاقة وثيقة بينه وبين إنسان آخر، إنسان يضحي الكثير من أجله.

وهكذا حال فاطمة بدأت تتعمق في فترة المراهقة وبدأت تبحث عن الحب في حياتها، حالها حال الأخريات فكان أول لقاء مع الحب، وبدأت بوادره تلوح في حياتها في مرحلة الثانوي، وبالضبط في السنة الثانية التي تقول عنها أنها السنة التي بدأت فيها ذكرياتها، في هذه الفترة بدأ الحب يتسلل إلى قلبها ويغمر حياتها تقول: «كنت متحمسة جدا للذهاب إلى الثانوية، فهناك يوجد شخص أحب أن أراه، تتسارع دقات قلبي كلما لمحته في الساحة وهو يرمقني بنظراته في البداية كنت أتجاهله ثم أصبحت بدوري أرمقه وقبل حلول نهاية السنة أصبحت أدمنه!

كنت أحب أن أراه كل يوم حتى يطمئن قلبي، وأشعر بالفرحة العارمة كلما صادفته، بعد مدة تألفت نظرتنا وازدادت تعلقنا كما لو أن نعرف حقا بعضنا البعض.

شيئا فشيئا حفظته .... حفظت وقفته المستقيمة ابتسامته الخجولة، قميصه، محفظته، مكانه المفضل في الساحة، إنه تلميذ يستفتي ببينة «...»، أنذاك لم يكن لدي أي مفهوم للحب ولا أية فكرة عن الرجل«...» كأني فتاة في عمري كنت أؤمن بفارس الأحلام، وأقول لنفسي: إن كان لا بد أن أتزوج فإني أختار هذا الشاب».[2]

لا يمكن أغفال صبر المرأة عندما تتحدث عن الدرجة التي تصمد بها المرأة في الحب، فالمرأة إن أحببت وأحبت صرّت على حبيبها ومعه فحين يتعلق الصبر بالحب، فهي تصبر حتى يملّ الصبر

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: 39.

[2] المصدر نفسه، ص: 14.

منها، فإننا نجد دائما حواء عادة ترسل إشارات تدل على إعجابها بالرجل دون أن تعبّر بالكلام، وإذا نجح الرجل في التقاط هذه الإشارات في الوقت المناسب، فإن هذه قد تكون بداية قصة حب طويلة وذلك لأن قلبها قد خفق الخفقة الأولى، والحب خالط قلب الفتاة لأول عهدها فأخذها ونقلها من الهموم والأكدار إلى حياة السرور والبهجة.

فكانت فاطمة دائمة الانسياق لطارق بقدر الاشتياق له بقدر حبها له، فهي دائما تظهر القدر الكبير من الاشتياق له، وهذا دليل قوي على امتلاكها مشاعر حب كبير تجاهه تقول:

- طارق.

مددت يدي بلهفة لأصافحه سبقني بالكلام:

- كم أنا سعيد برؤيتك.

- ماذا تفعل هنا؟

- ألا ترين محفظتي؟ فأنا تلميذ مثلك.

«...» كانت تلك أجمل هدية ممكن أن أخطي بها بقدر ما أسفت لرسوبه، وسعدت بعودته. آه كم اشتقت اليه»،[1] وتقول أيضا: «فحينما تشتاق لمحبوبك تتزاحم الكلمات في ذهنك أثناء غيابه ولكن أن ما تلاقيه حتى تتوقف عن الكلام، ويدرك أن اللغة المنطوقة هي اللغة عابرة وعاجزة عن التعبير، لذا ستتفضل أن تحدثه بعينيك وأذنيك ويديك وبيدك وأنفك وشفتيك، وحواسك أن استطعت فالحب احساس لها ولكن لا يعاش إلا بالحواس».[2]

فنجد أن حياة فاطمة ذهبت هباءً، فهي لم تجد الحب والعطف في بيتها ومع عائلتها إلا من طرف أبيها الذي كان يُساندها دائما، بخلاف أمها التي كانت داعمة، ومؤيدة لأخويها باستمرار؛ لأن الأم دائما تميل إلى الجنس المخالف أو الجنس الثاني الذكوري، وكذا أخويها اللذان يمقتانها ويعنفانها بشكل مستمر لكن رغم الوجع الذي تواجهه فاطمة داخل منزلها، أما خارج المنزل فقد وجدت إنسان يحبها ويضمد جراحها؛ حيث أصبحت تشعر أن حياتها لم تذهب هباءً، فتتلقى دائما الحب والحنان من

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: *30*.

[2] المصدر نفسه، ص: *68*.

الشخص الذي تحبه، إنسان محب لها، طارق ... هو أول رجل أحبته فاطمة، كانت كثيرة الحب له، ترغب دائما برؤيته وهو أهم شخص واكب فاطمة، وشخصيتها الفعالة، تقول: «الجلوس جنبا إلى جنب مع الحبيب يولد إحساس بالود والحميمية، أما الوقوف عن قرب منه وجها لوجه يولد إحساس جارف بالرغبة بالقبض عليه وعناقه بشدة، استندت رأسي على صدره وتعانقنا في صمت، وحينما رفعت رأسي لأودعه كان شعري قد استدل وراح يلملمه كعادته وهو يناديني بصوت خافت:

زهرة .... يا زهرة الزهرات .... يا زهرتي

أحببته على نفس الموجة:

- ها طارق.

سحبني اليه بقوة مطوقا خصري بذراعيه وتحسس جسده وأنفاسه ودقات قلبه تجتاح صدري، وفي لحظة هاربة من الزمن وقعت شفتاه على شفتي واستغرقت القبلة ما يكفي من الوقت، لأدوب بين يديه وكأنما نمت لبرهة، أو دخت أو مت المهم التي دخلت في غيبوبة قصيرة ثم عدت إلى وعيي ثم اعترتني رعشة من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ لعلها رعشة البرد التي أتى به الظل عندما لحق بيننا، ولعلها رعشة القبلة الأولى.

ليس بعد القبلة الأولى كلام، تعانقنا وغرقنا في ضمة طويلة كم تمنيت لو انفردت به إلى الأبد، كم اشتهيته كلما متى اقترب، وكم اشتقت إليه وأنا معه، فماذا لو ذهبت عنه!»،[1] فهو لقاء تسوده الحميمية تغلب عليه الإنفعالات الروحية، تجد فاطمة السعادة مجرد وجودها مع حبيبها، وبين ذراعيه فهي كانت دائما صامدة لأجله، لأنه الشيء الوحيد المفرح في حياتها، تسعى إلى ارضاءه فهو السند الذي تميل إليه وعليه بعد والدها.

هكذا دامت فترة الحب والعشق بين الود والسرور والبهجة والملاقاة في الثانوية وبعد مرحلة الثانوية، في لقاءات مدبرة وخفية خوفا من إخوتها إلا أن تقدم طارق لخطبتها، وكان الأصعب في هذا الأمر تقول فيروز: «مساء الخير سي صالح أنا شيخ الطاهر وهذا طارق ابن أخي جينا لطلب ابنتك فاطمة الزهراء.

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: 69-70.

أخفى أبي سعادته العارمة ورحب بهما لكن وصول فؤاد لم يعط فرصة للجيران يكون، تفحص الضيفين ثم خاطب طارق:

– من أنت وماذا تريد؟

– أنا طارق وهذا عمي جئت لخطبة فاطمة الزهراء.

– صمت للحظة قبل أن يندفع الدخان من أنفه وأذنيه:

– جئت يا ابن الكلب يا قليل الحياء ! لو كنت رجلا لكنت خطبتها قبل أن تبعث برسائلك القذرة، أم حسبت بنات الناس لعبة بين يديك ! فتمالك طارق نفسه قليلا قبل أن يرد، واغتاظ أبي فمد ذارعه على صدر فؤاد ودفعه إلى الوراء:

– أدخل إلى البيت، فلا دخل لك أنت، إنها ابنتي وقد جاء ليخطبها مني، لكن ما كان فؤاد ليدخل أو يسكت وقد وقف رشيد بجانبه:

– أين عرفتها، ومتى؟ هيا تكلم يا عديم الشرف!

راح يسأل أسئلة بلا معنى ويحاصره بصدره، كأنما سيضره، نفذ صبر طارق، وانفجر مخاطبا إياه بتحد لا محدود.

– لو أنك حقا تحبها وتخاف عليها ما كنت مددت يدك عليها، أم تترجل فقط على النساء الضعيفات فقط !

– أجئت لتعلمني كيف أربي أختي يا سافل؟».[1]

وهكذا احتدم الشجار بينهما طارق وأخيها، وحُسم الأمر، فهي لن تتزّج لن تتزوج طارق، تقول: «وهكذا غادر حبيبي ولو كان آخر رجل في الدنيا لن يزوجوني له»،[2] ضاع أمل فاطمة، وتحطّمت أحلامها، وأصبحوا يبحثون لها عن زوج تزف له، قبل أن تجلب لهم العار وتعددت محاولات طارق في إنقاذ فاطمة محاولا اقناعها بالهروب معه، لكن تلك المحاولات باءت بالفشل؛ لأن فاطمة فضّلت الحفاظ على شرف أبيها، وصون كرامته، خوفا عليه كلام الناس، «بين لحظة تشرفت

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: 84-85.

[2] المصدر نفسه، ص: 86.

بمعرفتك ولحظة تشرفت برحيلك، ثماني عشرة سنة من العبودية والذل زواج شرعي، ولكن زواج غير إنساني، زواج بائس، زواج تعس، وخرجت منه بأنف مكسور ونهد مبتور، وآلاف الكدمات والجرحات والصدمات، خرجت فارغة اليدين، لن أركب سيارتي ولن أسكن شقتي لن أنقذ كرامتي إلى آخر لحظة هو من طلقني، عندما أراد وكيفما أراد؟»،[1] وهكذا غاب الحب في حياة فاطمة الزهراء، إلا أن عادت والتفت بطارق، لتحسّ ذلك الاحساس الذي افتقدته لسنين من جديد، تقول: «وأخيرا عشت جمعة مباركة في حياتي!!... مددت يدي ولمست مربط في معصمه... تعانقنا وغرقنا في قبلة عرضها السموات والأرض واشتهيته ولم تمنيت أن يكسر عظامي ليعيد تشكيلي من جديد، بكل ما أوتيت من قوة عانقته وبكل ما أوتيت من شوق قبلته.

قبلتنا الأولى عشت بها واحد وعشرين سنة وهذه القبلة سأعيش بها ما تبقى لي من سنين.

قبّلته، وقد قررت بكل ما أوتيت من إيمان وعنفوان أن أعيش الحب، وأعيش حياتي، ملء الكون وملء كياني».[2]

فإذن: موضوع الحب رغم حضوره لا يكتمل أبدا فهو الموضوع الحاضر المغيّب يستحال في زمن يكون فيه كل شيء مبرر عداه هو.

مما يدل على أن ثنائية الحب والإرهاب ضدية لا تجتمع في جوف أمرئ واحد، لأن الإرهاب وما يترتب عنه من معاني خوف ورعب، واللاأمن والموت والذبح، في كل لحظة لم يدع لهذه البذرة والعاطفة الإنسانية النبيلة كي تنمو وإنما عجّل بقلعها كلما سمع لها صوتا.

فالحب الذي يمثل أسمى المواطن على الإطلاق هو نوع من العار بالنسبة إلى المجتمع، ويعد جريمة لا تغتفر حين يكون مُعلنا، فالمرأة في رواية «تشرفت برحيلك» وتمارس الحب بصمت وتخاف أن تجلب العار وأن الحديث عنه يعتبر فضيحة.

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: *228*.

[2] المصدر نفسه، ص: *249*.

7-المرأة والمثقف:

1.7/ مفهوم المثقّف:

يعد المثقف مصطلح من بين المفاهيم التي كثرت النقاشات، وتعددت وجهات النظر حول تحديد معنى المثقف ووضع تعريف شامل له وذلك راجع إلى تعدد الرؤى اليه وتعدد اللغات وتداخل المفاهيم والمصطلحات لمعرفة معناه، نقف أولا على معناه اللغوي للمصطلح.

1.1.7/ المثقّف لغة:

«اشتق لفظ المثقف من الفعل (ثقف) وثقف الشيء ثقفا وثقافا حذقه الرجل، والرجل ثقف حاذق فهم ويقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم، ابن دريد: ثقف الشيء حذقته، وثقفه إذا ظفرت به، وثقف الرجل ثقافة: أي صار حاذقا خفيفا، والتفاف خشبة سوى بها الرماح وحديدة كوّن منها القواس والرماح يقوّم بها الشيء المعوج»،[1] وثقف الرجل أي صار حاذقا خفيفا فهو ضخم منه مثاقفة وثقف أيضا ثقفا مثل: تعب أي صار تعبا فطنا.

«والثقاف ما تسوى به الرماح ومنه قول عمر: إذا عض الثقاف بها اشمئزت تسح قفا المثقف والجبين، وتثقيفها: تسويتها».[2]

2.1.7/ المثقّف اصطلاحا:

«ارتبط مفهوم لفظ المثقف باسم الضابط الفرنسي ألفريد دريفوس ذي الأصل اليهودي الذي حكم عليه سنة *1994* بالنفي إلى غويانا بتهمة التجسس لصالح ألمانيا، نتيجة الحقد والكره الذي يكنه الفرنسيون لليهود، وخنقهم على سيطرة اليهود وحياتهم المالية والشؤون السياسية الفرنسية، فاتسم بذلك المجتمع الفرنسي ونخبته المثقفة إلى مناصر إلى دريفوس، ومعاد له وعرفت الحياة الثقافية الفرنسية ظاهرة جديدة بنزول عدد من علماء الفكر والأدب في فرنسا أمثال (إيمائيل فولا، وأناطول فرانس ومرسال بروست ولنون بلوم) إلى حلبة الصراع، والساحة العمومية محتجين على قرار المحكمة والمطالبة بإصدار بيان حمل توقيعهم، قرار المحكمة ونشرته جريدة الفجر الفرنسية سنة *1898* بعنوان

---

[1] أبو الفضل جمال الدين بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج*9*، مادة (ث، ق، ف).

[2] المرجع نفسه: ص: *12*.

–بيان المثقفين– من أجل رفع التهمة عنه وإطلاق سراحه ورد اعتباره»،[1] وقد كانت هذه الحادثة السبب الأول في إطلاق كلمة المثقفين وشهادة ميلاد وندرة أولى للمثقف، من ثمة أشار اليها غرامشي أنطونيو «فكل من يعمل اليوم في حقل مرتبط بإنتاج المعرفة أو نشرها فهو مثقف حسب مفهوم غرامشي»؛[2] فجل الناس هم مثقفون لكن بدرجات متفاوتة، لكن ليس بمقدورهم أن يؤدوا الدور نفسه الذي يؤديه المثقف الحقيقي في المجتمع، فهم يرسمون صورة المجتمع ويبلور مطامحها وأهدافها وكذلك الدفاع عنها، وهذا ما أكده إدوارد سعيد في قوله: «إن المثقف هو فرد له في المجتمع دور علني محدد لا يمكن تصغيره إلى مجرد مهني لا وجه له، أو عضو كقوة في طبقة ما لا يهتم إلا بأداء عمله، فالحقيقة المركزية بالنسبة إلي كما أعتقد هي أن المثقف وهي ملكة عقلية لتوضيح الرسالة أو وجهة نظر أو موقف أو فلسفة أو رأي أو تجسيد أي من هذه أو تبيانها بألفاظ واضحة لجمهور ما، وأيضا نيابة عنه، ولهذا الدور محاذيره ولا يمكن القيام به من دون شعور المرء أنه إنسان مهمته أن يطرح علنا للمناقشة أسئلة حرجة... يقوم المثقف بهذه المهمة على أساس المبادئ»؛[3] حيث يعتبر مفهوم المثقف هو مفهوم متحرر من كل القيود التي تعيق تطوره، وهو متصل اتصالا كاملا مع ملامح العصرنة والرقي فهو يرتبط أصلا بمفهوم التحديث، وتعتبر مدلولاته وفقا لمجريات التطور والتحديث، عبر الأزمنة والشخصية المثقفة هي شخصية قيادية تنتمي إلى النخبة تملك القدرة على التأثير في الناس بفعل ما تمتلكه من فكر وعظمة وقوته كما تتسم بالرؤية الثاقبة للحياة والأشياء.

«فالمثقف يأخذ أدوارا عديدة تنهض على حمايته والعمل على تقدمه وتطويره، فالمثقفون هم الأشخاص الذين يمتلكون المعرفة وموهبة الحكم على المواقف المختلفة والصفة الغالبة على كل المثقفين هي استيعابهم لأدوات المعرفة واستخدامها في العمل الذهني».[4]

«فالمثقف ينظر إلى الأشياء والأمور نظرة صادقة موضوعية نابعة من المواقف الاجتماعية المختلفة فمساهمته جليلة في بناء المواقف الاجتماعية من خلال التفاعل الحميم بينه وبين أفراد المجتمع؛

[1] سهيل لعروسي: الاشكالية الثنائية في الثقافة الغربية، مجلة الفكر السياسي، العدد 9–10، دمشق، دمشق، 2007، ص: 88–89.

[2] محمد الشيخ: المثقف والسلطة، الطبعة 01، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1999، ص: 65.

[3] إدوارد سعيد: صور المثقف، ترجمة: غسان غسان، الطبعة 01، دار نهار للنشر، بيروت، 1996، ص: 28.

[4] عبد السلام محمد الشاذلي: شخصية المثقف في الرواية العالية الجديدة، الطبعة 01، دار الحداثة، الجزائر، 1985، ص: 25.

حيث ينصهران ويتحدان ككلمة واحدة، وعادة ما يزيد تطور المجتمعات وتقدم الحضارات هذه التفاعلات القائمة بين الإنسان المثقف وبين عالمه الاجتماعي والحضاري ثقافة واحدة طالما كانت مساهمة المثقفين عن طريق قواهم العقلية المستمدة من معارفهم وعلومهم أحد العوامل الأساسية في تطوير المجتمع نحو تقدمه الحضاري».[1]

وقفت الرواية على نموذج المثقف من خلال تقديم شخصية المرأة المثقفة وتصويرها، وهي الشخصية المحورية التي تمتهن مهنة التعليم، تعتبر من أكثر مساهمة في بناء المجتمع وتقدمه، وإفناء ذاتها من أجل الارتقاء بالآخرين، وما تقوم به من أدوار في حياة تلاميذها، كانت فاطمة مجتهدة في عملها ومخلصة لطلابها رغم كل الضغوطات التي تعاني منها في بيتها، إلا أن هذا لم يؤثر على سيرورة عملها.

في رواية «تشرفت برحيلك» لفيروز رشّام برز نموذجان من المثقف هما: المثقفة المعلمة، الثي أخذت على عاتقها مهنة التعليم والتنمية؛ وكذا نموذج المثقفة الكاتبة التي اتخذت من الفن سبيلا للارتقاء لأعلى مراتب الإبداع، وكذا طريقا لتنقل تجربتها في الحياة، وما يعتريها من مشاعر وأحاسيس للقارئ. حيث تُمثّل فاطمة الزّهراء شخصيّة المثقف اللامنتمي، وهو نموذج الشّخصيّة الّتي «لا تنتمي إلى أيّ فكرة أو اتّجاه معيّن»،[2] فهي دائما ما كانت تشعر أنها لا تنتمي إلى جغرافية ذلك العالم الذي نشأت فيه ظاهرة الإرهاب، والظلم والعنف وخاصة الأحلاف، فهي ترى هذا المجتمع متناقضا مع مبادئها وأفكارها، حيث كانت تلك الثقافة المنتشرة والسائدة تعتبر معارضة لثقافة وفكر فاطمة المثقفة الّتي «تعبّر عن شريحة اجتماعيّة يتشكّل منها الواقع»،[3] غير أنها كانت تشعرها بالانفصال الكلي عن مجتمعها الذي لا يعرف بمنظومة القيم الاجتماعية، والتي يراها منافية للقيم التي يؤمن بها فهي دائما كانت نابذة لتلك المنظومة فهذا النمط من المثقفين «يرفض الانسجام مع المجتمع ولا يعتني بقضاياه

[1] ينظر: عبد السلام محمد الشاذلي: شخصية المثقف في الرواية العالية الجديدة، ص: *21*.

[2] محمّد بشير بويجرة: الشخصية في الرواية الجزائريّة *1970 – 1983*. (د. ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د. ت)، ص: *70*.

[3] المرجع نفسه. ص: *128*.

ولا يهتم بتغييره، فهو ينتقد وينقد من أجل السخرية وليس من أجل تغيير المفاهيم الخاطئة التي تشبع في المجتمع ولا يرضى عنها».[1]

كانت فاطمة مجتهدة في عملها فدائما ما كانت تتلقى الصعوبات لكن بقيت دائما تحفظ على منصبها على مسؤوليتها اتجاه تلاميذها فهي على العموم كانت في مجتمع يرفض حتى العلم والدراسة، ويرفض خروج المرأة من المنزل حيث ترتبط به ارتباطا وثيقا تجمعهم صلة لا تنقطع، فهي التي تختزل مراحلها العمرية ونضالها بين كراريس جدرانه المظلمة والواقع المؤلم وهذا حتما سيستوقف فاطمة خلال حياتها سواء في بيت الأب أو في بيت الزوجية.

في مراحلها الأولى –الثانوية– كان إخوتها يرفضان الدراسة أجمعت على تكملها، هكذا كان الحال إنها كانت هشة البناء مأزومة، مهزومة، سلبية غالبية الأحيان أسرتها تشعر بتهميش والعجز استمرت على نفس الوضع إلى أن انتقلت إلى بيت الزوجية فكانت المعاناة أعظم تعيش تحت الإهانة والضغط تقول فاطمة: «قبل الدخول المدرسي بيومين، جمعت القليل من أغراضي في حقيبة صغيرة وحملت محفظتي وجلست في الصالون أخبرت أمي أني أريد العودة إلى العمل. داخل ناصر دون أن يلقي التحية كالعادة وخاطبته:

– علي الذهاب إلى مديرية التربية غدا، يجب أن أبدأ إجراءات التحويل فأنا متأخرة جدا، سيعود التلاميذ إلى الدراسة بعد أسبوع.

– ومن قال أنك ستعودين إلى العمل؟

بسرعة اجتاحني الإحساس بالخوف والخطر.

– ماذا قلت؟ لكن هذا شرطي وشرط أبي وقد وافقت عليه!

– لقد غيرت رأيي ولا أحد يحاسبني!

شعرت بالدوار ورأيته على اثنين:

– لا يمكنك منعي مستحيل أن أتخلى عن عملي!

– قلت أنك لن تعملي وانتهى الكلام.

[1] هويدا صالح: صورة المثقف في الرواية الجزائرية المعاصرة، الطبعة *01*، دار رؤية، القاهرة، *2013*، ص: *50*.

لا لم ينته فالآن قد بدأ، حيث أقسم أنه عيب أن يعد الجل بشرفه ثم لا يفي!».[1]

تقف فاطمة منهزمة وعاجزة عن الرد أو الرفض. بقيت مستسلمة لقدرها ومصيرها وأشكال القمع والاضطهاد المختلفة، ولكن سرعان ما تتخاطر الأفكار لتجد حلا يقف حائلا بين عملها وبين زوجها فهي لن تقنع بالوضع الراهن وإنما تسعى للبحث عن الوضع المغاير وهو الوضع الصحيح لتعود إلى عملها رغما عن إرادة زوجها.

كانت فاطمة دائما تسعى إلى البحث عن الحرية المنشودة والعدالة المفقودة، في مجتمع اختلط فيه الحابل بالنابل، والحق بالباطل فهي دائما كانت تعيش اغتراب داخل وطنها وبين أهلها وحتى زوجها، علاقات سطحية فقط.

فهي دائما لا ترغب في إبداء رأيها فيما يحدث حولها معلنة حيادها لا انتمائها ورغم ذلك هو نموذج لمثقف إيجابي لم تستسلم وتتراجع ولم تفشل، ولم تلجأ إلى الفرار والهروب على الرغم من معاناة المعلم الدائمة من التهديد بالقتل من الجهات المسلحة.

سعت الروائية إلى كشف وعي الشخصية الساردة، والمثقفة بضرورة تغيير الدعوة إلى حرية الرأي والفكر فقد كانت دائما ما تعمد إلى نشر أفكار إيديولوجية من خلال دروسها التي كانت تلقيها على التلاميذ بروح عالية وهمة لا مثيل لها فهي مثقفة محافظة على قيمها ومبادئها وفكرها.

ومن هنا نستنتج أن مكانة المرأة لا يمكن حصرها في عدة نقاط... فهي ظهرت في الرواية بصفات متعددة المحبوبة والمهمشة، والخاضعة لتقاليد المجتمع، والمرأة الكارسة لقيود الرجل، المتمردة على السلطة الذكورية، وكذا عملت على كشف القضايا المحرّمة في المجتمع التي تخشى مناقشتها بحجة أنها موانع لا يجوز الحديث فيها.

[1] فيروز رشام: تشرّفت برحيلك. ص: 132.

الفصل الثّاني:

تجلّيات صورة المرأة في رواية «تشرّفت برحيلك»

لعل اختلاف النقاد في تحديد مفهوم الصورة الفنية يجعل من الصعوبة الوقوف على تعريف جامع لهذا المصطل،ح وذلك لأنه من المصطلحات التي ليس لها جذور في القاموس العربي؛ إذ كانت غالبا ما تأتي الصورة الفنية في التراث الأدبي مرادفة لعلم البيان بفروعه من: التشبيه، والاستعارة، والكناية.

وقد تعامل معها النقاد باعتبارها نوعا من الأنواع البلاغية التي هي تُمثّل انتقال الدلالة، أو تجاوزا فيها، فهي علاقة تناسب متعددة الأركان البلاغية، بل أحسوا أنها تتسع فوق تلك الفكرة معاني، ودلالات خاصة، وهي المنفذ الذي ينتقي الكاتب فيه ألفاظه بحسٍ مرهفٍ بوحي من تجاربه الخاصة، وينظمها في نسق حافل بالتعبير المجازي، والإيقاعات الموسيقية، فهي الوسيلة التي يعتمدها لتجسيد شعوره، وقد جاء اهتمام النقاد المحدثين بالصورة امتدادا لبعض النقاد القدماء من أمثال: **الجاحظ** (ت*255* هـ)، و**العسكري، وقدامة بن جعفر** (ت*337*هـ)، و**عبد القاهر الجرجاني** (ت*471* هـ)، تحت ما يسمى التصوير، كونها عنصر مهما من عناصر العمل الأدبي، ما يجدر الإشارة اليه أن الصورة «هي أساس كل عمل فني، وبما أنه لا يمكن تصور فكرة في عقل إنسان بغير كلمة تدل عليها، ولا توجد المعاني في العقل إلا باللغة، فلا بدّ أن ترتبط الصورة بقدرة الكاتب اللغوية، وبمعجمه اللفظي، ومقدرته على التلاعب بالألفاظ، وصياغتها لتأدية معاني جديدة مبتكرة ترتبط بخيال المبدع الخصب»،[1] فالصورة هي الطريقة الفنية لتوصيل المعنى إلى المتلقي بتعبيرات خاصة تعجز اللغة عن توصيلها.

1/ مفهوم الصّورة:

1.1/ لغة:

جاء في «لسان العرب» لابن منظور مادة (ص، و، ر) «الصورة في الشكل والجمع صور وقد صور فتصور، وتصورت الشيء توهمت صورته، فتصور لي التصاوير: التماثيل».[2]

---

[1] ينظر: التطاوي عبد الله: الصورة الفنية في شعر مسلم عبد الوليد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، *1997*، ص: *12*.

[2] ابن منظور: لسان العرب، بيروت، مادة (ص، و، ر)، د.ت، *2/492*.

وأما التصوير فهو «إبراز الصورة إلى الخارج بشكل فني فالتصور إذا عقلي فهو أما التصوير فهو شكلي وأداته الفكر فقط وأما التصوير فأداته الفكر واللسان واللغة».[1]

أضاف ابن الأثير (ت*630* هـ): «أن الصورة ترد في كلام العرب إلى ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته على معنى صفته يقال: صورة لفعل كذا وكذا أي هيأته».[2]

قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ ﴾، [سورة آل عمران، الآيتين: *05- 06*].

كما ورد في معجم مصطلحات الأدب مفهوم أخر للصورة مفاده أنّ «الصورة الأدبية ما ترسمه مخيلة الأديب باستخدام اللفظ كما ترسمه ريشة الفنان، وتكون متأثرة بحال الأديب إما البهيجة أو الكنينية».[3]

/*2.1* اصطلاحا:

تعددت الإتجاهات في تحديد مفهوم الصورة، وأنماطها، وأشكالها، إلا أن هناك اتجاهين أساسيين: الأول حصرها في الصورة البلاغية من تشبيه، واستعارة، وكناية، ومجاز، أمّا الإتجاه الآخر فحصروه، ووسعوا فيه، وفي هذا المفهوم لم تعد الصورة البلاغية وحدها المقصودة بالمصطلح، بل قد تخلوا عن الصورة بالمعنى الحديث من المجاز أصلا، فقد تكون غبارة حقيقية الاستعمال، ومع ذلك تتشكل الصورة، دالة على خيال خصب، والصورة التي نعتمدها في هذا البحث هي الحضور، والتمثل؛ أي المعنى الثاني، ومن هذا المنطلق نجد أن عناصر الصورة مكونة، وحاضرة في الفكر تقوم مقام خليط من العواطف، والأفكار التي من الأهمية بمكان أن يتم القبض على أهدافها العاطفية، والايديولوجية القائمة على درجة التلقي (المتن السردي) لدى القارئ، وقد ارتبط مفهومها بتعدد المدارس النقدية، فأدى ذلك إلى تباينه، وتقاربه لاختلاف مرجعيات النّقاد الفكرية، والمواد المشكلة للصورة حسبهم.

---

[1] مجلة الرسالة، المجلد الثاني، العدد *64*، ص: *1756*.

[2] ابن منظور: لسان العرب. مادّة (ص. و. ر).

[3] محمد بوزواري: معجم المصطلحات الأدبية، الدار الوطنية للكتاب، الجزائر العاصمة، *2009*، ص: *185*.

و اعتمد النّقاد على العقل ليكون أساسا لتعريف الصورة، وكذلك هناك صنف آخر اعتمد على الشعور، والوجدان في تعريف الصورة، مثلا نجد **عز الدين اسماعيل** يقول: «الصورة دائما غير واقعية وإن كانت منتزعة من الواقع لأن الصورة الفنية تركيبة وجدانية تنتمي إلى عالم الوجدان أكثر من انتمائها إلى الواقع».[1]

ويذهب **محمد غنيمي هلال** إلى إنّ: «الصورة لا تلتزم ضرورة أن تكون الألفاظ أو العبارات مجازية فقد تكون العبارات حقيقية الاستعمال وقد تكون ذلك مع دقيقة التصوير دالة على خيال خصب»،[2] وهو يذهب مذهبا آخر ؛ حيث ينفي أن اشتراط مجازية الكلمة، أو العبارة لتشكيل الصورة؛ حيث إنّ العبارات الحقيقية قد تكون دقيقة التصوير ذات خيال خصب، وإن لم تستعين بوسائل المجاز.

في حين يرى **أحمد شايب** أن الصّورة تختلف باختلاف الجنس الأدبي في القصة، والأقصوصة، والرواية، والمسرحية النثرية، وأنّها تقوم على الملاءمة بين الشخصيات، وتربط بين الحوادث، وتعزي بالمفاجآت، والمبالغة، والمقصد، ويشترط فيها الوحدة التي تشمل الكمال، والمنهج، والتناسب.[3] ويقيس هنا قدرتها على نقل الفكرة، والعاطفة بأمانة، وهي العبارة الخارجية للحالة الداخلية، والقدرة على التناسب، والتوفيق بينهما، وتكون فيه من روح الأديب وقلبه.

ونجد كذلك من ربط بين الصورة والخيال على أنها: إبداع ذهني صرف، وهي لا يمكن أن تنبثق من الجمع بين حقيقتين واقعتين لم يدرك ما بينهما من علاقات سوى العقل.[4]

ويتضح مما سبق أن النقاد قد اختلفوا في تعريف الصورة، وأن الآراء والتعريفات السابقة قد تداخلت فيما بينها، وقد أدى هذا الإختلاف إلى صعوبة التوصّل إلى تعريف جامع للصورة على الرغم من استعادة كل ناقد من تعريف ناقد أخر، والملاحظ أنهم عرفوها من منطلق الخلفية الفكرية، فمنهم من ركز على مادتها، ومنهم من اعتمد على تشكيلها، وصياغتها، ووظيفتها، فيما حاول البعض التوفيق بين هذه الآراء.

---

[1] اسماعيل عز الدين: الشعر الأدبي المعاصر، قضايا وظواهره الفنية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1978، ص:127.

[2] هلال محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، مطبعة دار النهضة، مصر، 1997، ص: 432.

[3] يُنظر: أحمد نادر عبد الخالق: الصورة والقصة، بحث في الأركان والعلاقات، ص: 76.

[4] قدور عبد الله: ثاني سيمائية الصورة، الوراق للنشر والتوزيع، ط1، 2008، ص119.

وقد تعددت صور المرأة في الرواية الجزائرية، فنجدها تارة أُمًّا تتوفر فيها كل مقومات الأمومة، وتؤدي دورها على الوجه الأمثل، ونجدها تارة أخرى امرأة عاملة، وتتجلى بصور كثيرة نقدّمها فيما يأتي:

2/ صورة المرأة الحبيبة والعشيقة:

عالجت الرواية الجزائرية قضايا الحب، والعشق الّتي تجمع بين الرجل والمرأة على نحو يشعر بأهمية تلك العاطفة في حياة الإنسان، وتكوينه لا سيما المرأة؛ حيث يرى البعض أنه لا حياة بلا حب، وعشق، وقد خلده الشعر والرواية، وغيرهما من الأعمال الإبداعيّة.

وقد حرص الروائيون الجزائريون على إبراز ذلك الشعور الذي يحدث نوعا من الطمأنينة، والاستقرار في نفس من يحيا به، فغالبا ما يحتل الحب قمة مشاعرنا، ويغوص إلى أعماقنا، وهو في الحقيقة ما يتوق إليه معظمنا فهو هدف نبيل،[1] فقد اختلف الناس في ماهيته، وقالوا، وأطالوا، والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء الناس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع لا على ما حكاه **محمد بن داود** -رحمه الله- عن بعض أهل الفلسفة «الأرواح أكر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قوامها في مقر عالمها، ومجاورتها في هيئة تركيبها»،[2] وقبل أن أقوم بعرض صورة المرأة الحبيبة العشيقة لا بدّ أن نتعرف أو ننوه أولا لماهية الحب ذلك دون إطالة.

لقد شغل تعريف الحب، وتحديد مفهومه كثيرا من المفكرين، والعلماء، والفقهاء، ويأتي في مقدّمتهم منهم الإمام **ابن حزم الأندلسي** (ت 456 هـ)، والذي ألف كتاب «طوق الحمامة في الألفة والأُلاف»، وهو دراسة في الحب، وأسبابه، وضروبه، وأعراضه، وعلله، وآفاته، في محاولة الوقوف على معناه، والتأكيد على أنه لا يتعارض مع الدين، طالما كان في إطاره الصحيح، ولم يفض إلى معصية، وكان مما قال **ابن حزم** في ذلك «أوله هزل وآخره جد دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة إذ القلوب بيد الله عزو جل».[3]

[1] يُنظر: ريتشارد تميلر: قواعد الحب ترجمة مكتبة جرير، مكتبة جرير، ط2، الرياض، 2010، ص: 1.

[2] علي بن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألاف، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2016، ص:11.

[3] المرجع نفسه، ص: 11.

وقد ذكر في المؤلف نفسه أنواع المحبة وليصل إلى ذروتها وهي محبة العشق التي لا حلة لها إلا اتصال النفوس.[1]

وكما هو مألوف في الحياة البشرية أن أساسها هو الاتصال بين المرأة والرجل، وهذا الاتصال يبدأ بميل أحدهما إلى الآخر، فكل الأدباء ومن كل الاتجاهات يحرصون على تصوير الحبيبة بنفس المواصفات القديمة مهتمين بمقاييس الجمال الأنثوي، وخوضهم في تجربة الحب، وقاسوا فيها، ورسموا تلك الفتاة الحسناء الجميلة في رواياتهم،[2] والرواية الجديدة لم تعد تحدد الزواج كهدف وثمرة للحب، بل صار الحب يكفي وحده، بل لم يعد الحب أيضا هدفا، وإنما هو مظهر للاتفاق، والوعي المشترك فعند **واسيني الأعرج** لا تطرح معهما «قضية الحب بمعناه الرومانسي السابق ولا يهدفان إلى الزواج إطلاقا، إذ إنّ منطق الرواية الفكري والرمزي يرفض هذا الطرح التقليدي».[3]

تُجسّد نموذج المرأة العشيقة، أو الحبيبة في رواية «تشرّفت برحيلك» شخصيّة فاطمة الزّهراء، وهي تلك المرأة الجميلة عشيقة طارق، امرأة ظلّت محافظة على قوامها، ذات الشعر الذهبي، دائمة الاهتمام بنفسها،والتي تظهر اعتناء كبيرا بجمالها، فإذا تأملنا صورة الحبيبة في رواية فاطمة التي كانت تتردّد على الثانوية نفسها التي يزاول بها طارق دراسته، نجدها تتحدث في كل الرواية عنها وعن الرسائل المتبادلة بينهما، وباهتمامهما ببعض.

ومن صور الفتاة المحبة التي عرضتها هذه الرواية الجزائرية بدقة، الصورة السردية الّتي عرضتها لفاطمة تلك البنت التي أحبت زميل الدراسة؛ حيث تروي فاطمة قصة حبّها لصديقها، فكما جاء في الرواية قائلة: «لا أدري كيف ولكني حقا أحبه وأشتاق وليس بيننا بعد أي كلام!».[4]

وتواصل سرد تفاصيل العلاقة قائلة: «بقينا لأشهر ونحن نتبادل النظرات أو البسمات من بعيد، وما كادت تنتهي عطلة الربيع حتى أحرقني الشوق، ذهبت بلهفة أول يوم من الفصل الدراسي الأخير والقصير، دق الجرس بعد ساعتين وخرجنا لاستراحة العاشرة الساحة مسرح للقبل والعناق

---

[1] يُنظر: المرجع نفسه، ص: *63*.

[2] يُنظر: يوسف عبد المجيد فالح الضمور: صورة المرأة في شعر خليل مطران، مذكرة ماجستير، الأدب واللغة العربية، *2001*، ص*118*.

[3] صالح مفقودة: المرأة في الرواية الجزائرية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ط*2*، *2009*، ص ص: *109-109*.

[4] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: *17*.

بين التلاميذ... وأنا كنت أرد التحايا وأسلم على زميلاتي وعيناي ترصدان شخص آخر... إذا به واقف أمامي كنت أول مرة أراه هكذا عن قرب... صمتنا وأخذ يتأملني وأنا مثله لا أشعر بوجود... لا أدري كم دامت لحظة الصمت وربما برهة فقط وأنا بدت لي طويلة».[1]

لقد استطاعت الروائية من خلال هذا الحوار على لسان فاطمة أن تكشف لنا عن جانب من خصوصية الأنثى في تلك المرحلة العمرية الخطيرة، وهذا الجانب يتمثل في احتياج كل امرأة تمر بها إلى شعور بالحب، وقد صادفت فاطمة الحب أثناء دراستها في تلك المرحلة مرحلة الثانوية، كما استطاعت الروائية تسليط الضوء على جانب أخر تمتاز به الأنثى المحبة، ألا وهو مدى إخلاصها، ووفائها لذلك الحب، ومدى قدرتها على مجابهة الضغوط الأسرية، والاجتماعية، والتي مكنتها من الحفاظ على فرصها في تكليل حبها نهاية سعيدة، ولكن للأسف لم يحدث ما كانتتمنى تحققه.

و نقلت الروائية أيضا من خلال هذا المشهد حجم القلق الذي انتاب الأسرة مترتبا على رفض فاطمة للارتباط من الشباب الذين تقدموا لخطبتها، ولكن لم تطل فترة إخفائها السبب الرئيس لعزوفها عن الزّواج، وزاد رفضها للارتباط، وانكشف أمرها في البيت أصبح الجميع يعلم، تقول فاطمة: «قبل أن تدقي على الباب تأكدي أن السيارة قد غادرت وأن الضيوف قد ذهبوا فإذا فتح أي شخص الباب فقولي له أنا أحتاج فاطمة وإذا فتحت فاطمة سلمى سلمي لها ما في جيبك. كان فؤاد بالبيت يستعد للخروج حينما سمعت دقا على الباب خرج وفتح لها:

- مساء الخير أحتاج فاطمة الزهراء
- وماذا تحتاجين منها؟

صمتت الطفلة مرعوبة شكله المخيف بلحيته المتوحشة زأر في وجهها كالوحش ...

- قلت لك هات ما عندك.

من رعبها سحبت الرسالة ورمتها بين يديه وفرت هاربة، حسبناه خرج وإذا به في فناء الدار يقرأ الرسالة على مهل ... اهتزت أركان البيت بصراخه: يا عاهرة يا فاجرة ... أين أنت ! ...

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 18.

ستجلبين لنا العار أهذه الدراسة والعمل ! ».[1]

وبعد انكشاف قصّة فاطمة أصبح أخواها، وجميع المحيطين بها علم بعلاقتها بطارق، وغدا همهم الوحيد تزويجها، والتخلص منها.

فقد استطاعت الروائية أن تشير إلى محاولات التدخل المشروع لأخويها في بعض القرارات المصيرية، ومحاولتهما المستمر لتصحيح مسار حياتها، وتقديم النصح والارشاد على طريقة الإرهابيين كما يعتقدون هم، وهذا على خلاف الأب الذي يتمتّع بكلّ الحريّة، وله الأولويّة في التدخل في حياتها، لكنه كان يمنحها الحرية، والثقة، ويظهر ذلك جليا في عدم ضغطه عليها.

لتأخذ الأحداث الرّوائيّة منحنى آخر في قصة طارق وفاطمة، حتّى أصبح كل شيء صعبا عليها؛ بعد أن تقدم لفاطمة عريس، وهو صديق أخيها فؤاد؛ أي إنه من الجماعات الإرهابية فهو مثله، ولم يبقى أمام فاطمة حل آخر، إما الهروب مع حبيبها طارق، أو القبول بحياة مع إرهابي وكفى.

فيما يخصّ الهروب، فهي لا تستطيع فعل ذلك على الرغم من أنها كانت تريد ذلك بشد،ة ففراق الحبيب صعب جدا عليها، لكن بحكم شريعتنا هي لا تستطيع التقليل من قيمة أبيها، والمساس بشرفه، يكفي ما فعله أخواها الإرهابيان. وقد استطاعت الروائية في هذا المشهد أن تبرز ملامح الألم التي اصطبغت بها مشاعر فاطمة المحطمة نتيجة فقدان حبيبها، فعبرت عن شعورها بالحسرة، الذي بدا واضحا على قسمات وجهها العابس. كما عبرت عن حب كليهما للآخر، وحجم معاناتها عند الفراق، كما استطاعت أن تشير إلى بعض الظروف والتقاليد الاجتماعية التي تمثل -في كثير من الأحيان- عقبة في طريق المحبين، هذا ما أشارت الروائية إليه بسبب المجتمع الذكوري، وتسلط الأسرة أحيانا، ومحاولتها فرض نموذج معين على بناتها في الحياة، ومنع البنت من حق الاختيار، ولو في أهمّ شؤون حتايتها، وأكثرها خصوصيّة، كما فعلت أسرة فاطمة التي عجزت عن مواجهتها، والدفاع عن حبها واقفة مستسلمة أمام سلطة العائلة، وإعلانها عن عدم الرضا عنها في حالة مخالفتها وعصيانها، مما أدى في النهاية إلى استجابتها لرغبة أسرتها، وتخليها عن حبها كما حكت فاطمة عن مأساتها بعد الفراق «تركتنا بعضنا كل في مدينة... اسم طارق يخرج لي من كل الصفحات، بكل الأحجام والأشكال

[1] المصدر نفسه، ص: 75.

والألوان حاولت كتابة شيء، لكن لم ينزل علي لا وحي الشعر ولا وحي النثر فأدركت أني عاجزة عن الكتابة أيضا ومزقت الأوراق التي فيها اسم طارق تفاديا للمشاكل»،[1] فقد عبرت فاطمة هنا عن مشهد الوداع كما جاء في الرواية بكلمات مقتضبة، وعبارات موجزة مما يُعبّر عن عدم رغبتها في تذكر تلك اللحظات الأليمة، كما تحدّثت عن متاعبها ومرضها الذي نتج عن فراق حبيبها، كما أنها لم تنس أن تذكر لنا حجم الألم الّذي تلقته من أسرتها، فقد رسمت تلك الصورة بكل ما فيها من تفاصيل.

عبرت الرواية فيما مر ّمن أحداث، عن بداية قصة فاطمة مع الحب بفرحها، وسرورها، وعدم قدرتها على الوصول لإجابات عن أسئلتها، والتي قامت بطرحها على نفسها، وعن أسباب تصرفها بطريقة تجد فيها خروجا عن المألوف، وانعكاسا لثقافة المجتمع الذي تعيش فيه، وما ينطوي عليه من قيم، وعادات، وتقاليد، وأعراف، فهي لم تختبر تلك المشاعر سابقا، ولم تمر بتجارب عاطفية من قبل، لذلك لم تجد تفسيرا لتصرفاتها، غير الجنون، حتّى لقبت نفسها بالمجنونة كما يشير ذلك أيضا إلى اندفاعها في أنّ اللّحاق بذلك الشخص خارج عن إرادتها، ومنافٍ لطبيعتها المحافظة، ليكون حالها مأساويا عند فراق طارق، فكلّ شيء خارج عن السيطرة.

كما استطاعت الرواية الجزائرية أن تنقل صورا مختلفة للمرأة الحبيبة، والتي أحبت بقلبها وروحها حبا نقيا عفيفا كذلك نجد الروائية جسدت صورة للمرأة –صورة أخرى- مضادّة لسابقتها ألا وهي صورة المرأة العشيقة، التي تسعى إلى اشباع رغبات جسدها، وإخماد نار احتياجها، فهي لا تريد إلا المتعة، وإشباع النّزوات.

قدّمت الرّوائيّة شخصيّة حفيظة في صورة المرأة العشيقة المصاحبة للرّجال، والتي لا تشعر بالارتواء بغض الطرف عن طريقة تحصيله، ودون الوقوف على حقيقة العلاقة التي تجمعها بهؤلاء الرجال، وهل تجتمع بهم في وضع حلال، أم حرام، تقول فاطمة: «حفيظة هي مدللة أمها تأكل وتنام هي الأخرى وتختلق الأسباب للشجار من حين لآخر تلبس جلبابها ونقابها وتخرج لحجة أنها تتعلم الخياطة وفي المساء تعود متشببة، موردة الخدين وأنها أخت إرهابي ومع ذلك تقابل عشيقها بل عشاقها في الأحياء المجاورة، وفي ذات الحي أحيانا! من أين تأتي تلك القوة والجرأة لا أدري كنت أحسها كلما

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 132.

تعود من موعد غرامي تعود وهي حاملة بعض القماش لفستان لن يخاط للتمويه فقط، والبقع الزرقاء والحمراء تطل من كل مكان رقبتها وذراعيها وصدرها وفخذيها رأيت ذلك عندما صادفتها في الدوش وهي تستحم قبل الخروج تستخدم كريمات نزع الشعر وشفرات الحلاقة وماء الكولوني وأشياء أخرى تشي بأنها تتهيئ وتحضر نفسها لرجل».[1]

كشفت فاطمة من خلال سردها لهذا المقطع السردي فئة من المجتمع لا يشغلها إلاّ البحث عن إرضاء ذاتها، وحب الشهوات دون خوف، أو وجل، فهي من النساء اللاتي لا تأبه بما أملاه دينها عليها من أمر باجتناب المحرمات، والابتعاد عن الخبائث، فجلّ أهدافها في الحياة يتمثل في تحصيل المتعة، وتلبية نداء الشهوة، فهي كما وصفت امرأة تكاد تفقد آدميتها عند الشعور بالرغبة فتغلب عليها حيوانيتها، لتقوم باختلاق المشاكل كلما رغبت في فعل تلك الأشياء المشينة؛ حيث نجد أنّ الروائية قد نجحت في تصوير المشهد السردي بكل دقة، وذلك يوحي للقارئ بأن الشّخصيّة ليست على صلة بعرف، أو دين، ولا تتوفر لديها أدنى درجات الآدمية.

3/ صورة الأم:

تحظى شخصيّة الأم الّتي صوّرتها الرّواية بالجلال ذاته الّذي تحتله الأم في الواقع؛ حيث جاء التصوير المعبر، والتجسيد الفني الذي يقدمه الكتاب، والروائيون للأم في أعمالهم من النماذج الكبرى، والأعمالال خالدة في كل مكان وزمان خاصة في صورتها الملائكية المثالية، والواقعية التي تؤكد على مثاليتها، وقيم التضحية، والبذل، والتفاني في خدمة أسرتها، والدفاع عن أبنائها، وخدمة مجتمعها.

تحظى الأمّ في الأدب بالمكانة ذاتها الّتي تحتلها في الحياة، فالأم لا تمثل سوى الخير في هذا العالم المليء بالشرور، الأم هي المعجزة التي وهبها الله ﷻ لكلّ إنسان، فهي المخلوق الّتي جُعلت الجنة تحت أقدامها، وقد حصلت على تكريم خاص في الدين الإسلامي، فجعل لها مراتب عالية، ومرتفعة عن غيرها من البشر، كما أثنى الإسلام على دورها في الأسرة، ودعا إلى برّها، واحترامها، وطاعتها، والرضوخ، والتدلّل لها حبا، وحرمة كيف لا وقد قال الله ﷻ في كتابه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: *144–145*.

لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾﴾، [سورة القيامة، الآيتين: 23- 24].

ولكن على خلاف الآية الكريمة تسري الأمور في مجتمع حطمت فيه كلّ القيم، وخاصة قيمة المرأة؛ حيث تسبب هذا الوضع المجتمعي في سخط المرأة على وضعها القائم؛ لأنّها تحتلّ موقعا دونيا، النظرة إليها نظرة غير سليمة نابعة من موقف مسبق يستضعفها، ويقلل من قدراتها بشكل عام.[1]

بداية أتحدّث عن المرأة بوصفها أُمًّا، وقد آثرت الحديث عن الأم لما لها من فضل كبير، فهي المعين، وأساس الأسرة التي يقوم عليه بنيانها، والأم مقدمة على الزوجة، ولأنها تجمع صفات ثلاث لا تتحقق كلها فيهما، فالأم ابنة الرجل، وزوجته، وأم الأبناء.[2]

كما حرصت الروائية كل الحرص على تقديم صورة المرأة الأم في صورة واقعية، وقد أحسنت ذلك؛ حيث نقلت مشاهد تدل على أمومتها الحقيقية، وصوّرت علاقتها بأبنائها، ومشاعرها تجاههم، وعن أسلوب هذه الأم في التعامل مع أولادها، نجد أنها تسعى لتنشئة رجال، ونساء يشار إليهم بالبنان، ولكن للأسف لم يتحقق لها ما تريد، ففاطمة وأولادها كانوا محاصرين بجوّ مظلم؛ لأنّها لم تستطع تربية أولادها كما تقول: «أما أولادي فلا أعرف كيف أربيهم في غرفة مغلقة بين عقول مغلقة وقلوب مغلقة وقد بدأ الضحايا الجدد في الظهور»،[3] فظاهرة الحزن والمعاناة تلاحق فاطمة دائما في هذه الرواية، فهي امرأة سيئة الحظ تتحمل مسؤولية أبناءها لوحدها في غياب زوجها الإرهابي الذي كان منشغلا بالجماعات الإرهابية بدل أسرته وأطفاله، والذي لم يكتف بذلك، بل كان خائنا أيضا من خلال علاقاته المشبوهة بالنساء مما جعلها تستسلم للواقع؛ حيث حاولت هذه الأم إعطاء أولادها الحنان حتى تعوضهم ولو بالشيء القليل عن فقدان حنان الأب، فقد صورت الرواية عذاب فاطمة النفسي في زمن غاب فيه المستعمر، لكنها هي لا زالت تعاني مستعمرة فيه من طرف ناصر ووالدته، فهي لم تر في حياتها إلاّ اللون الأبيض، واللّون الأسود، تريد أن يكون لأطفالها اللون الأبيض فقط، ورغم كل

[1] يُنظر: صالح مفقودة: المرأة في الرواية الجزائرية، دار شروق للطباعة والنشر، بسكرة، ط2، ص ص: 21-22.

[2] يُنظر: الحوفي أحمد محمد: المرأة في الشعر الجاهلي، دار الفكر العربي، مطبعة المدني، ط2، القاهرة، مصر، ص: 74.

[3] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 170.

ما ضحّت به إلاّ أنها ضيعت ابنا لها ليأخذ صفات البيت المغلق، صفات والده الارهابي، وجدته المسيطرة، وعمته الوقحة؛ ليكون صورة طبق الأصل عنهم تقول فاطمة: « محمد ليس ابني كما تقول حماتي فهو ابنهم وهو فعلا كذلك فأنا لم أربه وحدي ربوه معي وفي النهاية فلت مني، لم يكن بيدي تغيير أخوي أو زوجي لكن كيف فلت ابني مني وأصبح منهم! كيف لم أحترس أنه أصبح مثلهم؟ والآن فات الأوان على استرجاعه وحتى لا يتكرر سناريو حياتي سوف أنقذ أمال منه».[1]

قد رسمت الروائية في المشهد السابق صورة واضحة لما تتمتع به الأم من حب، وحنان، وكذا حسرة وألم فقدان ابنها، كما رسمت لنا صورة الحوار الذي دار بينها وبين نفسها، وما طرحته على نفسها من أسئلة بواسطة فؤادها، وعجزها عن الردّ عن آلاف الأسئلة التي تقفز من قلبها دون جواب.

تقول فاطمة: «خرجت آمال من المطبخ وجرت نحوي وعانقتني عناق شديد مشتاق وكذلك إسلام ونور الهدى، أولادي هم الأمل الوحيد المتبقي في حياتي»،[2] تصوّر الروائية صبر الأم على حياتها الصعبة، وتعبر أيضا عن رغبتها في تنشئة أبناءها تنشئة طيبة حسنة، لأنّهم أملها المتبقي في الحياة.

فهي مستعدة تمام الاستعداد للتضحية بنفسها، وبكل شيء، ولو كان الثمن حياتها، وهذا ما أكدت عليه الأم فاطمة مخاطبة ابنتها أمال: «البداية ستكون مع أمال الطفلة الهادئة الخجولة ففي يوم مشؤوم كانت تلعب ككل البنات بما تبقى من أغراضي من أشياء أنثوية قد تسلي طفلة في عمرها: حذاء أبيض بكعب عالي ارتديته يوم عرسي فقط وبقايا أحمر الشفاه لم أستخدمه إلا مرة أو مرتين عندما كنت عروس وكذا عقد وسوار لا يساويان شيء لم يكن عندها دمى أو ألعاب ولا حتى مساحة كافية للعب. رأيتها تلعب لعبة النساء الكبيرات شعرت بالأسى قلت لها: لو تعلمين يا ابنتي كم تكبر هموم المرأة وأحزانها كلما كبرت فلا تستعجلي وظلي طفلة ما استطعت».[3] شعرت الأم بالحزن والضيق لحال ابنتها؛ حيث استطاعت الروائية أن ترسم مشهد الأم بلغة روائية عكست الحزن الّذي كابدته الأم نتيجة رؤية ابنتها في ذلك البيت المغلق الذي يسوده الظلام، فهي لم تحظ بطفولة هادئة مثل قريناتها، ليكون ختام

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 223/224.

[2] المصدر نفسه، ص: 219.

[3] المصدر نفسه، ص: 170.

لعبها ضربا مبرّحا من طرف والدها، الّذي يتبع المد الإسلامي رافاض للحمرة والألبسة، وكذا هذه الألعاب، ما جعله ينعتها يالعاهرة، مثلها مثل أمها ، الأم التّي تحاول دائما غرس الطمأنينة وإزالة الرهبة.

اكتسبت هذه الصورة السردية شاعريتها من كونها صورة صادقة معبرة عن واقع الأم، وما يمثله الأطفال بالنسبة إليها، فالأم دائما تشعر بفيض في الحنان وشموله لجميع الاطفال من حولها، فهي أم للجميع تقول فاطمة: «-أهلا بعودتك أمين، هل أنت بخير؟

ظل صامتا مطأطأ الرأس وهو واقف جنب طاولته مددت يدي ورفعت رأسه من ذقنه:

- أمين أنظر الي لم غبت كل هذا الوقت؟

سالت من عينيه دمعتان شفافتان رأيت فيهما وجهي، نطق تلميذ من مكانه دون أن يسأله احد:

- آنستي، قتل أباه!

انفجر بالبكاء محاولا مسح دموعه خجلا مني، وأنا لم أعرف كيف أواسيه جلست على ركبتي ووضعت يدي على خديه ومسحت دموعه بالسبابتين.

لم أعثر في اللغة العربية على كلمة تنفع لهكذا موقف سحبته إلى صدري وضممته بما أستطيع من قوة مسحت على شعره وربت على ظهره، هو يبكي بحرارة شعرت يداه تضماني بكل قوة أيضا وقلبه الصغير ينبض نبض العصفور كان في منتهى الخوف والوجع لم تكن لدي كلمات للمقام كل ما أملكه هو حضني ... كانت تلك أطول وأقوى ضمة عشتها بكيت معه وبكى بقية التلاميذ في وجع إنساني لا متناه».[1]

صورتها الروائية في المشهد السابق يعتصر قلبها ألما لمجرد أن تلمح أحد تلاميذها منهارا أو موجوعا، فهي دائما تسهر على رعايتهم، وهذا ما يجعل ألمها وحسرتها يزيدان، في هذا المشهد رسمت صورة واضحة لما تتمتع به الأم من حب وحنان يشمل جميع الأطفال، كما رسمت لنا صورة واضحة عن الحوار الذي دار بينها، وبين تلميذها أمين عن طريق الكلمات والنظرات، وكذا اشتراكهما في الألم نفسه كلاهما ظل يفكر فيها فقد فقد هو والده، وهي فقدت حبيبها.

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 89/ 90.

«وزعت عليهم دفاتر العلامات ليطلع عليهم أولياؤهم وقال لي:

- آنستي هل يمكن أن توقع أمي في الكراس فأبي

قاطعته قبل أن يكمل:

- طبعا عزيزي.

واليوم أنا أتأمله أفكر في مصير مئات الأطفال المصدومين مثله وأكثر من ضحايا الارهاب.

ودعني التلاميذ عند باب القسم مرددين إلى اللقاء آنستي، عطلة سعيدة آنستي وعندما وصل إلي توقف ونظر إلي دون ابتسامة.

- سعيدة أنستي.

- هل تحبني يا أمين؟

هز رأسه عدة مرات وقال:

- أجل.

- كما تحبني؟

كثيرا أضحك وابتسم لأن أحزن كثيرا عندما أراك حزينا.

ابتسم وغادر وقد تذكرت قول طارق لا شيء يحزنني قدر حزنك».[1]

لوحة سردية واضحة تعبر تعبيرا صادقا عن ذلك القلق الذي يتملكها على أمين مجرد شعورها بتغيره سواء في القسم فدائما ما كان التلاميذ ينهمكون في اللعب والمشاغبة، ويبقى هو دائما ساكنا صامتا في مكانه، فهي كانت كذلك تساعده في مراجعة دروسه؛ لأنّه كان «مكسور النظرة والضحكة ما عاد كما كان بقي مجتهدا لكنه مثلي فقد بهجة الحياة، حيث لا شيء يضحكنا ولا شيء يسلينا».[2]

فهي دائمة القلق على تلاميذها، وخاصة أمين؛ إذ لا يهدأ قلبها، ويستقر وجدانها إلاّ إذ رأته في أفضل حال، فهي حريصة أن ينال أبناؤها أعلى المستويات، وأن يحوزوا أعلى الدرجات العلمية، وإنارة طريق مستقبلهم بجميل توجيهها لهم.

---

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: *90-91*.

[2] المصدر نفسه، ص: *90*.

4/ صورة المرأة السّلبيّة:

قدّمت الرّواية عدّة صوّر لسلبيّة المرأة الّتي تخضع للعادات، والتّقاليد، والأعراف، وترضخ لها، وهي الشّخصيّة الّتي يُطلق عليها صالح مفقودة تسمية الشّخصيّة النّمطيّة، الّتي تستسلم لسلطة المجتمع،[1] بالتّخلي عن طموحاتها، ورغباتها الّتي تصطدم بما هو معترف به في المجتمع، وسأحاول فيما يأتي تقديم صوّر المرأة السّلبيّة في الرّواية.

1.4/ صورة المستضعفة:

إن المتتبع لوضع المرأة منذ فجر التاريخ في مختلف الحضارات والثقافات يجد أن هناك شبه اتفاق بين جميع المجتمعات على وضع المرأة في رتبة أدنى من الرجل ما جعلها تحت إمرته، «تنصاع لما يمليه عليها من أوامر، وتنتهي عن نواهيه، كما أن دورها كاد ينحصر في رعاية أولادها، وتربيتها، والقيام بالخدمة في المنازل؛ إذ نجد خيطا جامعا يقوم على اعتبار جنس الذكر هو الجنس المتميز، السيد، المسيطر وعلى تبعية جنس الأنثى للرجل وخضوعها له».[2]

وقد أدى تصنيف المرأة متدني، واعتبارها تابعة لجنس الرجل الّذي يُعرضها للظلم والمعاناة على مرّ العصور في كل الحضارات بحكم أن العرب جزء من العالم، وهذا العالم كلّه أجزاء مترابطة، فقد تأثروا بالثقافات على مختلف الأصعدة، وبالخصوص الجانب الاجتماعي، لهذا عانت المرأة في المجتمع العربي؛ لأنّ المرأة عاشت في مجتمع ذكوريّ يسيطر فيه الرجل، ويفرض عليها كثيرا من الفروض، والواجبات، والصفات التي ألزمها بها حتى تنعم برضا الرجل في ذلك المجتمع الذكوري، واستمرت تلك الضغوطات الاجتماعية عليها؛ حيث اشتد حصار الرجل لها، وسلبت كثيرا من حقوقها التي أقرتها لها إنسانيتها، وانتقص من قدرها، وأهمل دورها مما فرض عليها أن تدخل في صراع طويل مع ذلك المجتمع الذكوري لاسترداد مكانتها، ودورها، وبعض حقوقها.

---

[1] يُنظر: صالح مفقودة: المرأة في الرواية الجزائريّة، ص: 157.

[2] السيوف نبيلة فايز: قضايا المرأة بين الصمت والكلام في رواية السنوية العربية، رسالة ماجستير إشراف سمير قطامي، الجامعة الأردنية، 2001، ص10.

وجدت المرأة نفسها في صراع مع الآخر من أجل استرداد المكانة المجتمعية؛ حيث كان للأوساط الأدبية عون كبير بصفة خاصة، والفنية بصفة عامة؛ إذ كان للرواية نصيب وافر في مساندتها والدفاع عن قضاياها، حتّى أخذت مساحة كبيرة لتكون الحاضنة مما جعل المرأة تفاضل، وتنادي من خلال المنابر، والمحافل المتاحة أنداك.

لا يمكن التغاضي عن دور المرأة دور وأهميته؛ حيث إنه شريك حقيقي مساهم في بناء المجتمع، فهي جزء لا يتجزأ منه، وهذا ما أرادت البطلة فاطمة توضيحه في الرواية، ولكن لسوء الحظ تبقى المرأة الجانب المهمّش في المجتمع، مما جعلها تستسلم، وتخضع للأمر الواقع، فهي تستسلم للأحوال سواء رضيت بها أم لم ترض، ما يجعلها تخنق نفسها، وتكتم عواطفها، ولا تطالب بحقوقها، وهذا بالضبط ما حدث مع فاطمة بعد محاولاتها الفاشلة في مواصلة العمل، وعدم وصولها لما تريد استسلمت، إلى أن رضيت بقضائها تقول فاطمة: «في اليوم الموالي كنت أستعد للذهاب إلى الثانوية بحماس وكنت سأدخل الحمام حينما تقاطعت معه في الرواق رمقني بنظرة ثم قال:

- هيه أنت ... أما زلت تجوبين الطرقات صباحا مساء!

أذهب إلى الثانوية لا إلى الطرقات.

دق قلبي دقات خوف وارتباك كل شيء يمكن أن تحمله إلا فكرة مغادرة الدراسة».[1]

هنا ولأول مرة بدأت فاطمة تدرك أن المعاناة سوف تبدأ والسقف على وشك الانهيار على رأسها وهذا لأن كل شيء بدأ بالتغيير لا الرجال كما كانوا ولا اللباس ولا التعامل فقط كلمات تجوب الأوساط إرهاب جماعات قتلى ورغم هذا ظل هدف فاطمة الدراسة وتحقيق أهدافها وكذا إصرارها على نيل حقها الطبيعي وحرصها على الوقوف في مواجهة مع أخويها وغيرهم، بدأت تتحدى تلك العادات والأعراف التي تعيق طريقها وبخاصة بعدما حصلت على حظ وافر من العلم والتعليم.

لقد تجلت لنا العديد من صور الصراع بين فاطمة التي لا حول لها ولا قوة إلا أباها الذي يقف إلى جانبها ولكن أحيانا كثيرة لا يستطيع الوقوف في وجه إرهابيين وفي تلك الصور التي أوردتها الرواية عكست تلك الصورة التي أوردتها فيروز في روايتها تقول «فتحت الباب وفؤاد أمام سريري

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 98.

منهمك بقراءة الديوان وقد بدأ الدخان يخرج من أنفه وأذنيه كالتنين الغاضب الذي كنت أراه في الرسوم المتحركة شدني من شعري وجرني نحوه.

- أهذه الدراسة التي تدرسين كنت أعلم أنك تعبثين لا أكثر أنت ستجلبين لنا العار!

ركلني برجله وضربني بقبضة يده علا صوتي وجرى الجميع نحو الغرفة سحبني أبي من بين يديه وهو يصرخ:

- كيف تتجرأ على ضرب ابنتي في حضوري؟ ماذا هناك؟ لماذا فعلت ذلك؟

هي تعرف ماذا فعلت ... لن تكملي هذا العام لن تنهيه أنا من سيهتم لك بعد الآن... بدأت أعي بعض معاني كلمة الإرهاب رغما أننا تشاجرنا مرارا قبل هذا وضربني بلا سبب».[1]

تعيش فاطمة السيطرة من طرف أخويها، فهي دائما تلك البنت التي لا حول ولا قوّة لها، ولا تستطيع فعل شيء غير الرضوخ للأوامر، ودائما ما كان الضرب هو الذي تتلقاه سواء كانت بسبب أو دونه.

تنطوي هذه الصورة على سلطة الرجل الفاحشة الذي يحاول دائما مسك زمام الأمور ما لم يخالف الأعراف، والتقاليد، والشرع الجديد.

سعت فاطمة دائما للتّأقلم مع وضعها، ولكن رغبتها كانت أكثر منها، وكانت تشعر دائما أنها وحيدة رغم أنها تعيش وسط أهلها، فهي كانت على يقين أنه لن يتغير أيّ شيء، فهي لم تكن لتعيش حياة امرأة حرّة دون قيود، فهي دائما ما كانت تكافح من أجل الالتحاق بالجامعة، والحصول على شهادة، وهذا لم يحصل؛ لأنّها تعيش تحت رحمة مجتمع ذكوري متسلّط، وكذا محاولتها الفاشلة في الحب وعدم وصولها لما تريد استسلامه، ورضيت بقضائها؛لأنّها كثيرا ما كانت ترى أن حبيبها هو مخلصها من الحياة الصعبة التي تعيشها، والتي فقدت مذاقها الحلو منذ أن التحق أخواها فؤاد ورشيد بالجماعات الارهابية، فكانت ترى طارق، وهو رجل غير متديّن من حولها يتعامل معها معاملة غير التي عهدتها في عهدة أخويها، كان حلمها أن تكوّن معه أسرة لم تدم فترة الأحلام كثيرا، وانكشفت قصة فاطمة، وهذا ما زاد من سخط أخيها فؤاد، لأنّ كل شيء عنده حرام، الدراسة حرام، والحب

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 33-34.

حرام، والسراويل حرام، هكذا كشفت لنا الروائية عن تدخل فؤاد في القرارات المصيرية الخاصة بها؛حيث أصبح كل شيء صعبا عليها، ووجدت نفسها أمام زواج لا رجوع فيه إن كانت راضية، أم لا، فلا خيار لها إلا القبول، يقول فؤاد: «حضروا أنفسكم لأنهم سيأتون يوم الجمعة وانتهى.

كنت خلف الباب حين همّ بالخروج وقال لي ساخرا:

- أنت أحمدي الله أنت وجدنا لك رجلا وإلا ستبقين عانسا طوال عمرك.

دخلت إلى الصالون وقدماي ترتجفان انتظرت تعليقا من أبي لكنه لم يقل شيئا في حين تكلمت أمي: - إن كان موظف وابن حلال فلم لا على كل عاجلا أن آجلا ستتزوجين.

لم أرد عليها وخاطبت أبي: أنا لا أريد الزواج...

صرخ رشيد في وجهي:

- اسمعيني جيدا خضت معك ما يكفي من المعارك فلتتزوجي أحسن لك إن كنت تريدين العيش وإياك ثم إياك أن أسمعك تنطقين اسم ابن الحرام وإن عاد ثانية أقسم أنني سأقتلك واقتله».[1]

أخيرا ستتزوج فاطمة، وتنتهي معاناة أخويها على حسب ما يعتقد كل منهما، أما هي فلم يبق لها سوى البكاء والتعاسة.

وصل يوم زفاف فاطمة الذي لا بد أن يكون يوما مثاليا لأيّ فتاة، فهو يوم عمرها، لكن هذا اليوم في الواقع لم يمنح لها السعادة ، لأنّها لم أن فؤاد ورشيد، وأمها راضون عنها، فقد مرّت اللحظات لتجد نفسها في جلباب أسود على خلاف كل الفتيات اللاتي يخرجن بفستان أبيض، فالحظ لم يحالف البطلة فاطمة حتى في يوم زفافها الذي لم تكن مقتنعة به، فبعدما أرادت أن تقنع نفسها أنها أصبحت ملكا لرجل آخر ربما قد تجد السعادة معه، رغم أن قلبها متعلّق برجل آخر وجدت نفسها في بيت مظلم أكثر من بيتهم أمام إرهابي جديد يسمى بناصر معاملة أسوء من معاملة رشيد وفؤاد، فهي دائما ما كانت تعاني الإذلال والمعاناةمع زوجها، فهي أدمنت التسول العاطفي، فهو دائم النفور منها إلا

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 98.

للمطالبة بالحقوق الزوجية أمّا الباقي فملغى، وهذا الخروج لا تحمل منه إلاّ اسم زوجة، فهو لا يعترف بآرائها، ولا بأفكارها، ولا بذوقها، فهو دائم السخرية منها.

فهو رجل مضطرب غريب العادات لديه عالمه الخاص يعيش في نظام خاص، وعلى الرغم من هذا تتقبله، وتتعايش معه، ومع هذا الوضع الباهت والبارد، فلا يوجد بينهما رابط إلا رابط الزواج على الورق.

وهذا ما جعل فاطمة تشعر بالدونية، والإذلال، وتعاني الإهمال من طرف زوجها، فهي تُحسّ أنّها بمثابة خردة من المنزل، وأن زوجها يعترف بها كزوجة أمام الناس لكن لا يعاملها كزوجة، ولا يبادلها مشاعر الاحترام، وبعد فترة أصبح لا يلجأ إليها تماما، فهي جالسة في البيت معه، فقط من أجل الأولاد؛ لأنّه وجد لهعشيقة يقضي معها معظم وقته؛ وهنا يلحظ القارئ ضعفها وخذلانها واستسلامها لزوجها، فهي موافقة على وجود العشيقة، خاضعة ومستسلمة لناصر؛ لأنّها امرأة فاقدة للسلطة، ولا حول لها ولا قوّة، فهي امرأة مقهورة، ومقموعة خاضعة للهيمنة الذكورية وتبعتيها نابعة من خوفها من واقعها، و ليست عن قناعة.

2.4/ صورة المرأة المستسلمة للواقع:

لا يمكن التغاضي عن أهمية المرأة في المجتمع، فهي شريك حقيقي مساهم في بناء المجتمع وإثرائه؛ لأنّها جزء لا يتجزأ منه، ومربية للأجيال الناشئة، لكن للأسف المجتمع الإنساني ينظر إليها بنظرات مختلفة، ويتعامل معها بصور مختلفة، لكنّ الحقيقة المرة أنها سخرت للخدمة، والاستغلال البشري، ونسي المجتمع ما عليه من مسؤوليات، وواجبات اتجاه هذا المخلوق الجميل.

وهذا ما أرادت الروائية توضيحه في صورة البطلة فاطمة في الرواية، لكن لسوء الحظ تبقى المرأة مهمّشة على الدّوام في نظر المجتمع، مما جعلها تستسلم للأحوال سواء رضيت بها، أو كرهتها، حتّى تخنق نفسها، وتكتم عواطفها، وتتنازل عن حقوقها، وهذا بالضبط ما حدث مع فاطمة بعد محاولتها الفاشلة في علاقة الحب مع طارق، وعدم وصولها لما تريد؛ حيث استسلمت، ورضيت بقضائها «...تدخل الجيران وفرقوهما ولمحت مربط شعري في معصمه، بكيت مزيجا من الفرحة والأسى لأن طارق فعلا أثلج قلبي وصدري بما فغله فؤاد.

الآن قضي الأمر، لن يزوجونني لطارق ولو كان آخر رجل في الدنيا، غادر حبيبي وصديقه تاركين فؤاد يقسم بأنه سيقتله، وأنه سينفيه مدن مدينة بومرداس، أما رشيد فبقي مندهشا وفي فمه جملة واحدة:

- من يقدر على هذا الشيطان».[1]

احتدم الشجار بين إخوة فاطمة وحبيبها بعدما علموا أنه الشخص الذي يبحثون عنه، جاء إلى بيتهم اليوم خاطبا أختهم، وفي نهاية الشجار الطويل العريض يغادر طارق؛ لأن الأمور ازدادت تعقيدا أكثر فأكثر، فهي دائما ما كانت تشعر أنها وحيدة في هذا العالم؛ لأن طارق هو الوحيد الذي يساندها ويعطف عليها، ويحبها.

«أقسم عليك أبي أقسم عليك خلصني من عذابي ...أفسخ هذه الخطوبة، قل لهم أني لا أريد الزواج سأموت إن تزوجت هذا الرجل سأموت ! في الحقيقة ذهبت عند أبي بحثا عن رضاه فقد كنت على وشك فعل شيء لن يرضاه أبدا، سمعني الجميع وتدفقوا إلى غرفتي، لم يكن فؤاد ورشيد بالبيت وإلا حدثت كارثة، لكن خديجة ستوصل الخبر إلى زوجها سريعا جدا.

- أووه منك يا فاطمة الزهراء !!! متى سأرتاح من مشاكلك.

أتظننينا نلعب ! ستتزوجين ناصر، وموتي إن شئت أن تموتي !».[2]

استسلمت فاطمة لواقعها ، وهي كانت على يقين أنه لن يتغير شيء، فهذه الحياة لم تخلق لتعيش المرأة دون قيود، أو تعيش كما تريد هي، تقلّبت حياتها بسبب الضغوطات، والصعوبات التي فرضتها عليها الطبيعة، أو البيئة الحياتية، فهي كافحت من أجل الحصول على طارق، والبقاء معه لكن شاءت الأقدار أن تتغلب الموازين، ويحدث عكس ما تريد.

بعد محاولة فاطمة في علاقة الحب الفاشلة التي عاشتها مع طارق، والّتي كانت ناجحة *100٪* لولا أخويها؛ لأن كل منهما كان يحب الآخر، ودليل ذلك رغبتهما في الزواج، لكن الإرهابيين يرفضون هذه العلاقات لبّت فاطمة طلب أخويها، وأبيها في الزواج من رجل تقليدي لا تعرف عنه سوى اسمه.

---

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: *86*.

[2] المصدر نفسه، ص: *116*.

وصل موعد زفاف فاطمة الّذي لا بدّ أن يكون يوما مميّزا في حياة أيّ فتاة ، فهو لم يمنحها سعادة في هذا اليوم، فقد كانت تشعر برضى الجميع عنها.

صار أول هذا الزواج يوما تعيسا مشكل؛ حيث «لم تفارقني سعاد لحظة وهي ترتب شعري ومكياجي، وقد أدرك كل من رآني أني لست بخير، بعد العشاء جاءت أخته بالحنة والحقيبة التي يفترض أن يكون فيها فستان الزفاف، كمن أصابه الصمم أرى الناس حولي يتحركون لكني لا أسمعهم مدحوني قليلا بذلك المديح الذباح الذي يخنق العرائس خنقا، وأنا التي سمعت كل أنواع السب والشتم في حياتي!

وضعت الحنة في يدي والزغاريد تعلو من أفواه نساء أهل العريسين فتحت حفيظة الحقيبة، تفرغ محتوياتها في حجري: ملابس داخلية، قارورة عطر، صابون وجه، حقيبة يد، حذاء أسود كعب عالي، فستان طويل بأكمام علبة مكياج ضخمة من عدة طوابق، وجلباب!

كمن يصعقني بضربة كهرباء عالية التوتر، استفقت وعدت لوعيي غير مصدقة أنها قالت:

- وهذا جلبابها !

سألتها سعاد:

- أين الفستان الأبيض.

أجابتها بتحد:

- وأي فستان أبيض ستزف بالجلباب !

... مرت ساعة والمعركة متواصلة وقد أدرك الرجال في الخارج أن مشكلة ما قد حدثت بعدما تعالت أصوات النساء في الداخل».[1]

لم يحالف الحظ البطلة فاطمة حتى في يوم زفافها الذي لم تكن مقتنعة به، عانتمن كل المتاعب، والصّعاب لترضي نفسها، وتكون امرأة عادية ترضى بحياة متكررة لا شيء فيها يثير الاهتمام، اندثرت وصارت حطامًا.

---

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 123-124.

وعلى هذا النحو تقول أن المرأة كانت مكبّلة بأغلال وقيود العبودية، فهي أصبحت خادمة للرجل، وأمة لسلطانه كما يظهر في الرواية.

3.4/ صورة المرأة المقهورة:

إن الحديث عن المرأة المقهورة يتطلب الحديث عن الأسرة باعتبارها الخلية التي تجمع مجموعة أفراد تربطهم صلة الدم، وتجمعهم علاقة مودة، إلاّ أنّ هذا المفهوم يختلف في مجتمعنا العربي عند أغلب أسره؛ لأنّه مبنيّ في الأساس على السلطة الذكورية، وتتمثل هذه السلطة في سلطة الأب، أو سلطة الأخوة، وسلطة الزوج بصفة خاصة، فالسلطة الذكورية هي المسيرة على المجتمعات عامة، والأسرة خاصة.

بالعودة إلى رواية «تشرفت برحيلك» نجد أنّ شخصية فاطمة نموذج للمرأة المقهورة، وما من شكّ فيه أن البيت هو المكان الذي يشعر الإنسان فيه بالاستقرار ؛ لأنّه يحمل دلالة الراحة والأمان. وهذا ما افتقدته فاطمة حين تسرد: «حل الربيع وأنا لا أزهرت ولا سأزهر قريبا».[1]

فاطمة لم تعش يوما لم تتعرّض فيه للمشاكل، فهي تأخذ كل يوم نصيبا من العنف، والكلام الدوني.

جسدت شخصية فاطمة صورة المرأة المقهورة بأتم معناها؛ حيث تبرز من خلال وصف السارد لحياتها، فهي مزيج لأخوين إرهابيين، وزوج إرهابي الذي لم يعترف يوما أنها زوجة له «جميلة التي لا تزال في حداد قامت لتهدئ من روعي الذي لن يهدأ أبدا، وأمي جاءت تحاول إقناعي بأن الزواج أفضل حل لي، وأنه قد يكون عريسا جيدا، لكنني انفجرت في وجهها:

- أمي أرجوك، لماذا لا تريدين أن تفهمي؟ ولداك يعملان مع الارهابيين، وقد زوجوني لارهابي مثلهما !» تبرز الساردة شدة القهر والعنف الذي تعرضت له فاطمة من أخويها الظالمان، فهم لم يكتفوا بفكرة الحجاب وايقافها عن الدراسة وغيرها من الأمور المرفوضة عليها رغما عنها، بل سعوا إلى تزويجها من ارهابي مثلهما وهذا هو الحال أصبح زوجها حقيقة.

---

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 87.

عاشت فاطمة المعاناة بصمت، عاشت صراع داخلي كانت تريد فيه إثبات وجودها لكنها لم تستطع يوما.

تتطور الأحداث بعدها في بيت زوجها وتحتدم المشاكل والمعاناة أكثر شيئا فشيئا، «ضرب وعض وركل كما لو كنت عبدا أو دابة ! ».[1]

لخصت فاطمة حياتها والعنف الذي تعرضت له في بيت زوجها، فهي لم تحظ بيوم سعيد معه، ولم تنعم بحلاوة الحياة الزوجية أبدا.

«لم أكن أقوى على شيء، مستلقية كالميت في فراشي أردد « باليتني من قبل هذا وكنت نسيا منسيًا»... ليس الموت شيء سيء، الموت بالنسبة لي رحمة لا توصف، ياليتني مت على يد فؤاد أو في حادث، فما أجمل الموت في نهاية الأمر».[2]

لم تكن فاطمة تتعرض إلى العنف الجسدي الذي يضعف من قوتها فقط ، بل كانت تتعرض للقهر النفسي أيضا وذلك أصعب، فهي كانت تتعذب في صمت، لقد عالجت الساردة من خلال هذا المقطع السردي، حالة الشّخصيّة النّفسيّة، ففاطمة نموذج لصورة دقيقة تحمل دلالة الواقع المعيش جرّاء الظروف القاسية.

5/ صورة المرأة العاملة:

استطاعت المرأة الجزائرية أن تحقّق عديدا من المكاسب في كثير من الأمور، ومن أهم هذه الأمور التي حققت فيها تقدما العمل، وتحملها المسؤولية يدا بيد إلى جانب الرجل في بناء الوطن، وكذا عملها على إرساء مبادئ المساواة والعدل؛ حيث إنّها نجحت في ذلك، نجحت في اقتحام أبواب السوق من أوسع أبوابه على الرغم من أنها وجدت صعوبات في توجهها نتيجة الخروج إلى العمل إلاّ أنها استطاعت أن تحقق ذاتها بين ما يملى عليها من مسؤوليات، ومن العمل، وما يفرضه عليها وضعها الاجتماعي من أدوار؛ إذ إنها واجهت العديد من الصعاب، وذلك نتيجة خروجها إلى العمل كما يعتقد، فالمرأة في الأصل يجب أن تكون في المنزل، وتربية الأطفال، لكنّ هذا لم يمنعها من القيام بمسؤولياتها،

---

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 154.

[2] المصدر نفسه، ص: 164.

لهذا فإن عملها ليس مقتصرا على مجال واحد، زمحدد فقد تنوعت الأعمال، والوظائف، والمهن التي برعت المرأة فيها، وهذا التنوع انعكس على صورة المرأة في أعمالها، وأنشطتها، وأدوارها التي تزاولها.

ففي الرواية الجزائرية نجد نقلا يمثل صورة المرأة الحقيقية العاملة بالرغم من الاتجاهات التي تقلل من دور المرأة ومساهمتها في عملية تطوير وتنمية مجتمعها، على خلاف فإن المرأة الجزائرية قد أثبتت أنها جديرة بهذه الأعمال على اختلاف مجالات العمل التي تعكس تنوع مستوياتهن الثقافي وكذا اختلاف بيئاتهن.

وهذا ما سنتطرق له في هذا المبحث بعض الصور من حياة المرأة العاملة في الرواية الجزائرية بشيء من التفصيل.

استطاعت الروائية فيروز أن تقدر للمعلمة حقها الذي تستحقه فأفضت عليها ثوبا من العطاء وإفناء الذات من أجل الارتقاء بالآخرين ومساعدتهم وتعليمهم ولقد كان ذلك من خلال الصورة التي قدمتها فيروز عندما تحدث عن المعلمة فاطمة وما تقوم به من أدوار في حياة التلاميذ، وهي معلمة ابتدائي ما كانت تعمل على رفع مستوياتهم بالسعادة والفرح، إلا مع تلاميذها دائمة الحرص عليهم حيث أصبح كل همها هم تلاميذها «مشغولة فقط بتلاميذي الذي نشأت بيني وبينهم مودة كبيرة أشعر بالسعادة العارمة عندما يستقبلونني كل صباح ومساء بابتسامة مشرقة ولغة مبتهجة قائلين جميعا: صباح الخير آنستي ... إلى اللقاء آنستي ... مساء الخير آنستي » فهي كانت تحبهم جميعا على اختلافاتهم، المجتهد والكسول، المشاغب والهادئ، الجريء والخجول، تحييهم حين ينشدون تنصت اليهم وخاصة عندما يكتبون لها رسائل الحب فهي دائما تتعامل برفق ولين مع جميع التلاميذ.

ومن الصور الأخرى للمعلمة التي لا يتوقف فيضها وفيض عطائها فهي التي لا تبخل بعملها ولا يتوقف عطائها لتلاميذها على ما هو مقرر عليهم وكذا تزويدهم من علمها، قدر ما يستطيعون استيعابه وتظهر لهم مدى للمتفوقين منهم ومدى حبها لهم «أمين أعز التلاميذ على قلبي هادئ وظريف وقليل الحركة والمشاغبة ذكي وجاد، مؤدب إلى حد لا يعقل حريص على تأدية واجباته في وقتها وفي ذات الوقت شاعري وحالم كان دائما يرسم سماء زرقاء رحبة ومشرقة ومروجا وبساتين خضراء كان يصر على الحضور حتى عندما يكون مريضا حتى لا تفوته الدروس».

ومن الصفات التي استطاعت الروائية الكشف عنها في المعلمة فاطمة ملاحظتها المستمرة لأي تغير قد يطرأ على أحوال أحد التلاميذ دقيقة الملاحظة وشديدة الارتباط بهم كل على خلاف ذات يوم من هذا الربيع الذي أزهر ونور دون أن يجمل قبح أيامنا لمحت مكانه فارغا وحسبته مزكوما أو محموما ككل الأطفال، في الغد وبعد الغد، ظل مكانه شاغرا وانشغل بالي عليه، بعد أسبوع جاء ودق باب القسم مع المدير ودخل متثاقلا منكسرا منكسر الجناحين أشار الي المدير بأن استقبله فقد أحضره أهله وبرروا غيابه وطلب مني أن أمر على مكتبه بعد الدرس ليوضح لي شيء. فهي دائما كانت تريد الوقوف إلى جانب تلاميذها وتقديم يد العون لهم في حين أنها تفتقد لمن يساعدها هي.

دائمة الإصرار على معرفة أحوالهم.

فقد استطاعت الروائية في هذا المشهد أن تصور لنا المعلمة فاطمة ومتابعتها لتلاميذها ومحاولتها للاطمئنان عليهم، وعلى أحوالهم داخل المؤسسة وخارجها، فهي إن كانت معلمة الصف المدرسة، ليس من تكليفات عملها متابعتهم خارجا إلا أنها لا تفقد الإحساس بأنها رمز العطاء وسبيل يعبر عليه من أراد أمانيه في الحياة وهذا ما دفعها باتجاه "أمين" لمعرفة أسباب غيابه والحديث معه لتسهم في مساعدته وتطمئن عليه «سرت إليه وانحنيت:

- أهلا بعودتك أمين، هل أنت بخير؟

ظل صامتا مطأطئ الرأس وهو واقف جنب طاولته مددت يدي ورفعت رأسه من ذقنه

- أمين أنظر إلي لم غبت كل هذا الوقت؟

سالت من عيناه دمعتان شفافتان رأيت فيهما وجهي ونطق تلميذ من مكانه دون أن يسأله أحد: آنستي قبل الارهابيون أباه»

نقلت لنا الروائية ما يعتز بها من مشاعر وأحاسيس تجاه تلاميذها ومدى انشغالها واهتمامها بأطفالها فهم المتنفس الوحيد الذي تملكه فهي دائما تحاول التخفيف من حجم المعاناة.

وفي هذا الصدد يجدر بنا أن نؤكد على عدم التقليل من شأن مشاركة المرأة الجزائرية في بعض الأعمال الحيوية التي لا يقوم مقامها الرجال شريطة أن تقدم المرأة كل الاهتمام بالأمور الأخرى وتأكيدها وحرصها فهو الميدان الأول لإثبات ذاتها فإذا نجحت فيه كانت في غيره أنجح.

ومن هذا المنطلق نتحدث عن نموذج صورة المرأة الشرطية وهي التي كذلك جنب إلى جانب الرجل في أعمال جد شاقة وصعبة والأكثر منها أخطر المهام في ذلك الوقت وقت شاع فيه الارهاب وكثر التقتيل والنهب وكذا السطو.

سعاد هي تلك الفتاة التي اتجهت إلى ميدان الشرطة بعدما كانت طالبة في كلية الطب، وهي التي اختارت هذه المهنة لأخذ الثأر من الجماعات الإرهابية الذين قاموا بقتل خطيبها الذي كان هو بدوره شرطي، هي تلك الفتاة التي رفضت وتخلت عن التقاليد الشرقية وخاصة تلك التي كانت تمنع الفتاة بالاختلاط واندفعت نحو ميدان العمل الخارجي، عملت على تحطيم التبعية.

تقول« سعاد ليست أي امرأة فهي تنادي "حضرات" بعد عدة ترقيات في عملها أصبحت الآن تقود جيش من الرجال لتقاتل أحد أخطر الإرهابين الذين لا يزالون ينشطون ولن تعود إلا وهو معها حيًّا أو ميتا، سعاد لا تهاب الموت وإنما الموت هو الذي يهابها» في هذا المشهد السردي نجد سعاد هي تلك المرأة الشرطية... على أعراف قريتها وناقمة على سياسة بلدها حيث تتابع الأخبار وتقوم بعملها وسط ألمام الإرهابيين والمسلحين أمام تواصل صور الدمار والقتل والاغتصاب وبالفعل نجحت فهي لم تكن مجرد شرطية بل التحقت بمكافحة الارهاب.

نجحت الروائية في رسم صورة سعاد يتخللها نوع من الشر والثأر والأهم حبها لحبيبها الذي أخذوه الإرهاب غدرًا، فهي كانت ومثالا يحتذى به في الإخلاص والوفاء في عملها.

ومن خلال ما تم مقاربته في هذا المبحث من صور المرأة العاملة في الرواية، يظهر لنا أنها عبرت إلى حد بعيد عن المرأة العاملة باختلاف الأعمال والمهن التي تنهض بها وظروف عملها ومشكلاته، وكذا الصعوبات التي تواجهها باستمرار، كذا اتضحت لنا أن المرأة عند الروائية قد اقتحمت مجالات العمل الصعبة والسهلة منها كل على حسب وكذا الخطيرة إن صح التعبير محققة بذلك ذاتها وحريتها، وكذلك صورت مدى قوتها وصلابتها ووقوفها ضد ما يعيق حياتها وسيرورة منهجها فهي دائمة الإصرار ودائمة الوقوف والتصدي «سعاد ليست أي امرأة فهي تحولت فعلا إلى امرأة جديدة، امرأة تمتزج فيها الأنوثة والرقة والحنان بالقوة والشراسة والانتقام لم ينته الارهابيون بعد وهي لم تتعب، في

جسدها العشرات من الجروح للمعارك الطاحنة بالرصاص، لكنها بعد كل إصابة تعالج وعندما تتعافى تعود للمواجهة».[1]

6. صورة المرأة المتحكمة:

تتجسد صورة المرأة المتحكّمة في رواية «تشرفت برحيلك» في شخصية أم ناصر؛ أي والدة زوج فاطمة المسيطرة، فهي نموذج المرأة القوية المتحكمة المتسلطة، فهي تعتبر الحجر الأساس في بيت الزوجية، صاحبة القرارات الأولى والأخيرة لا رأي لأحد في ذلك البيت في حضورها، فهي الأم المربية لسبعة أيتام، فهي التي تسيّر المنزل وترسم تفاصيل حياة عائلتها وعلاقاتهم وقرارتهم كل شيء في ذلك البيت يكون تحت ختميها، فهي دائمة الحرص على معرفة التفاصيل الدقيقة المهمة وغير المهمة، فهي امرأة تختصر النساء فعلى قدر سخطها وتسلطها وعلى قدر معاملتها البشعة والألفاظ الغير اللبقة وكيف لا وهي تمثل السطوة، هي دائمة الكره لفاطمة وتحقد عليها.

كشفت لنا الروائية عن حجم التسلط الذي تمارسه تلك الأم في كثير من الأحيان، وكذا أنها هي صاحبة القرار الصحيح، دائمة إملاء الأوامر والتي ترى في أي قرار تتخذه الصواب وترفض المناقشة وتعكس هذا على أنه نوعا من الخروج عن الأدب والتي هي بحد ذاتها ليست لها علاقة بالأدب « تقول فاطمة « وفي المساء جمعتني أمه بحفيظة وحميدة وقدمت لي شروط الإقامة في بيتها:

- أولا تذكري دائما أنك في بيت إمام وبيت رجال لا تنزعي الخمار أبدا وألبسي فساتين طويلة الأكمام، وإياك من بيجامات السراويل الكحل والزينة لزوجك فقط، وفي غرفتك فقط فلا تخرجي بها أبدا لا تسلّمي على أحد من الرجال من غير المحارم ولا خروج لك من بيتك إلا مع زوجك أما أشغال البيت فيدا بيد مع حفيظة وحميدة ولن تكون بنيكن مناوبة من لحقت على شيء تفعله.

بلغت غصتي ولم أعلق على شيء وقلت في داخلي أهذه ثكنة أم سجن؟ وهذا البيت أسوأ من بيتنا![2]

---

[1] فيروز رشام، تشرفت برحيلك، ص: 212.

[2] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 130-131.

فهي استحوذت على كل الأدوار فهي في الحقيقة أصبحت رجل، فهي قتلت تلك الأنثى في داخلها بالنسبة لها الجميع بلا فائدة لا يقومون بشيء، يكفي أن تقوم هي بكل المهام فهي تتحكم في كل شيء وتفرض سلطتها عليهم ليظهر على الجميع مظهر الخضوع والاستسلام لكل أوامرها.

وكذا ما نجده أيضا في طرح الروائية أنها دائما ما كانت تعامل فاطمة غير التي تحظى بها كنتها الثانية حميدة تقول: «لكما عدت إلى المنزل بعد العمل وجدت ثلاث إرهابيات في انتظاري فأمه لا تكف عن معايرتي وتحميلي مسؤولية كل الأعمال المنزلية بحجة أني عاملة وأن حفيظة وحميدة تعتنيان بالبيت في غيابي وإذا وصلت توقفت عن فعل كل شيء واحد أواني الغذاء تنتظرني كما ينتظرني المسح والكنس وغسل ملابس هذا العجوز المريعة التي لا تفعل شيئا سوى الأكل والنوم، على كتبتها وإصدار الأوامر للجميع وإنها كالملكة ولما لا ....أمير».[1]

قد بدت العجوز في هذا المقطع السردي تخفي عدة وجوه، حيث بدا يظهر عليها الوجه العنصري الذي حاولت إخفاؤه كثيرا ولكن مؤخرا بدا ظاهرا، جليا، واضحا، فهي دائما ما كانت تبدي لها أنهم غير راغبون لها إلا على أساس أنها وجه الابن ناصر.

«مرة كنت أرد الصرف كما يقال لحفيظة وحميدة على عدم غسلها أواني الغذاء، وعدم إعداد العشاء وانتظار قدومي لأفعل كل شيء وتدخلت حماتي بجملتها الشهيرة والمعتادة:

- نربي لك أولادك وتفتحين فمك!

انفجرت غضبا وقلت بعض الجمل المبعثرة دفاعا عن نفسي التي لا أجيد إطلاقا الدفاع عنها[2]

وقد أدى هذا الموقف الذي أصدرته فاطمة ورفعها لراية العصيان في وجه حماتها وبل أنها رفعت صورتها للمرة الأولى، وقد أدى ذلك إلى ضربها من طرف حفيظة وحميدة وعلى الرغم من هذه المواقف المتصلبة من حصة الحماة واصرارها على فعل فاطمة كل أشغال البيت من طرف فاطمة في حال عودتها من العمل. فأم ناصر دائما تنتظر أن الأمر أقل أهمية من أن يقترح حوله نقاشا، كما تشعرنا أيضا على حجم اصرارها على تنفيذ رغبتها دون مراعاة شعور فاطمة فهذا هو المصير الطبيعي الذي رسم لها.

---

[1] المصدر نفسه، ص: 144.

[2] المصدر نفسه، ص: 154.

وحتى زوجها الذي تنازل عن كل أدواره لأمه، وهي التي علمتهم كيف يقتل الرجل الذي يسكن بداخلهم وينسحب من نفسه، فهو لا يستطيع الابتعاد عنها وتركها فقد أصبح مقيدا لها خاضعا لجبروتها: « قالت أمي قالت أمي أنت لا تسمع سوى ما تقوله أمك، هل سمعت ما أقوله أنا يوما؟ أنا المخطئة دوما والظالمة لقد ضربتني أختك يوما وزوجة أخيك وعوض أن تنصفني جئت لتلومني هل أنت إنسان في البيت أم ماذا؟[1]

ففي هذا المشهد السردي تصف لنا الروائية مدى رضوخ الابن لما تقوله أمه فهي الحاكمة الأولى وأي شيء يطبق في البيت إلا بأمر منها، وكان ختام هذا الحوار الذي دار بينهما هو ضرب فاطمة وعدم الوقوف في وجه يظلمها فهو لا قوة له في وجود أمه التي احتلت مكانه وفرضت هيمنتها وسيطرتها فأصبح الكل عاجزا أمام جبروتها وطغيانها.

نجد معظم نماذج الأم في الرواية تختزل عادة في تلك الأم الشريرة حيث اتبعت هذه الصفة بالأم المتمردة على دورها الأمومي الذي يقوم على التضحية، فهنا خلافا لما هو مألوف في النماذج السابقة من الروايات التي تصف الأم بالعطاء والحنان وغيرهم من الصفات، فهي صوّرت بصورة قاسية بالغة وشريرة، فهي في الرواية تعتبر عقبة في وجه البطلة فاطمة وحاجزا يقف أمام طريقها، فهي في الرواية تحوّل حياة ابنها وزوجته إلى جحيم، تدعي بذلك حرصها على عدم الإخلال بالمعادلة الاجتماعية فالسلطة للكبير في المنزل كما يقال عموما « **لي راح كبيرو راح تدبيرو**».

7/ صورة المرأة المطلقة:

مما لا شك فيه أن الطلاق من الأمور التي يبغضها الله ﷻ جراء لمفاسده الكثيرة، كونه يؤدي إلى الفرقة والتفكك وله سلبياته وانعكاساته وأبعاده الذاتية والنفسية؛ حيث يعتبر من أصعب التجارب التي تخوضها المرأة في مسار حياتها لأنها تتحول بموجبها من محترمة إلى عاهرة، وبالرغم أن كل من الرجل والمرأة تعرض للطلاق لكن تأثيره السيء يقع على عاتق المرأة وحدها بحيث لا تستطيع إخفاء أثاره.

[1] فيروز رشام، تشرفت برحيلك، ص: 155.

تجد المرأة المطلقة صعوبة في التكيف اجتماعيا كما تواجه صعوبة في خوض التجربة مرة ثانية، فبعد الطلاق يهتز كيان المرأة وتتأثر نفسيتها، فقد أصبحت معروفة في المجتمع بالمرأة المطلقة، فهي أصبحت وباء وعاهة فيه.

صورت الروائية حال المرأة بعد الطلاق ما يسببه من ألم ومعاناة وجرح وكسر للعواطف والمشاعر وذرف للدموع وإذا المرأة تعرضت لطلاق تعامل بسلبية.

« كيف سيكون حالي وشكل حياتي الآن؟ أين سأنهي أيامي؟ أنا مطلقة يعني أنا حرّة ويعني أيضا أنا مطلقة مدمرة لا مال لدي ولا بيت ولا وجهة، الآن لم يبقى عندي شيء أخسره فلتكن نهايتي كما شاءت أن تكون بعد كل هذه السنوات من حياة القفص الحديدي كعصفور لا يعرف كيف يطير».

فهي امرأة تعرضت للظلم أو كان طلاقها نتيجة عدم فهم وظروف وغيرها من الأسباب، فهي تصورها تلك المرأة المجروحة التي تضمد جراحها وتلملم أوراق ذكرياتها فلا تستريح نفسها من أوجاعها وأحزانها.

فالمرأة المطلقة ليست معيوبة وبالتأكيد خاضت حروب وصراعات نفسية ومجتمعية لا يعلم عنها أحد.

تعرضت فاطمة للطلاق من طرف زوجها فهو الذي بادر بهذه الفكرة رغم أنها كانت قبل تعلم بكثير من الأمور منها علمها بخيانته الكثيرة وتعدد عشيقاته فهي في الأخير ضحية سلطة الرجل وجبروته، وكذا وصفه بأنها كائنا ضعيفا خائفا وتابعا تحت رحمة غيره، وهذه نابعة من كون السلطة لرجل وهي الغالبة في حياة المرأة وداخل الأسرة، فمثلا ناصر الذي كان لا يبالي بطلاق فاطمة وبأولاده فهمه الوحيد الزواج بعشيقته.

«الطلاق أسهل حل لرجل كناصر غير قادر تماما على متابعة مشاكل الأولاد فلا ود بيني وبينه، ولا صبر له عليهم ومتأكد أن أمهم لن تتخلى عنهم، وأنه أسهل حل للتخلص من زوجة منتهية الصلاحية واقتناء زوجة عصرية وغالية، الطلاق بثلاث أسهل وأسهل وأقوى من الطلاق بواحدة فلا صلح ولا رجعة ولا نقاش فيه».[1]

[1] فيروز رشام، تشرفت برحيلك، ص: 229.

هنا بدأت الدوامة تحيط بفاطمة كيف ستواجه المجتمع بثلاثة أولاد فلا مجال للعودة إلى بومرداس، حيث بيت أبيها « لا أم ولا أب في بومرداس حتى أعود اليها وإذا عدت مع أولادي إلى رشيد وزوجته وأنا مطلقة فسأكتب بنفسي الجزء الثاني من مأساتي».[1]

تكشف لنا الروائية من خلال المشاهد السردية عن أسباب الطلاق في الرواية ولخصتها في ما يلي -استنتاجا-:

- تدخل الأهل في الزواج قبل وبعد الزواج وسماح الزوج بهذا التدخل، وسوء المعاملة من الزوج.
- وجود مشاكل اقتصادية.
- العنف الجسدي واللفظي الممارس من طرف الزوج.
- الإخلال بالشروط المتفق عليها قبل الزواج « العمل».
- الخيانة الزوجية من الزوج ووجود نساء أخرى في حياته.

ولكن فاطمة كانت على خلاف النساء الأخريات المطلقات فقد بعث لها الله من يقف إلى جانبها ويواسيها ويأخذ بيدها للخروج من أزمتها وكذا الأخذ بيدها للتحرر من عبوديتها.

تخلصت من كل ما فات عليها سابقا فهي بدأت تعيش حياة جديدة بعيدة عن العنف والضغوطات فالطلاق بالنسبة لفاطمة كان إيجابيا وليس سلبيا: نقول فاطمة: «جربت ملابسي الجديدة أمام المرآة والسيدة زكية تملي علي كيف أستخدم بعض الاكسسوارات ومواد التجميل لأول مرة، ماسكرا، أحمر شفاه، حمرة خدود... وتعلمني طرق عصرية لوضع الخمار الذي أشعر دوما بالاختناق وضيق التنفس الناتج عن ضيق الحرية، ومع أني تعودت جدا عليه ولا أستطيع الخروج بدونه إلا أني أفضل تركه مفتوح في الرقبة وأكتفي برمي أطرافه على كتفي يمينا ويسارا كطفلة صغيرة فرحة بملابس العيد وهدايا العيد ورحت أجرب وأعيد تأملت وجهي وجسدي أمام المرآة ولأول مرة منذ سنوات رأيت نفسي جميلة، في النهاية الجمال هو إحساس مرافق للسعادة والكرامة والأمان».[2]

[1] المصدر نفسه، ص: 231.

[2] فيروز رشام، تشرفت برحيلك، ص: 235-236.

فاطمة رغم كل المصاعب والتحديات والمشاكل إلا أنها ظلت كعادتها تمانع وتكابر فهي الذروة التي لم يستطيع أحد بلوغها، فهي الحلم والمبتغى في رمزيتها.

8/ صورة المرأة الصديقة:

جسر الصداقة يبدأ ولا ينتهي، جسر طويل يمتد من الصغر حتى مراحل الشيخوخة، شرط أن تكون أسسها صحيحة، ولعل أن الفترة الأولى أن فترة الطفولة هي التي تهيأ الفرد لأن يندمج اجتماعيا مع أقرانه في الشارع والمدرسة لاكتساب شيء من المهارات الشخصية والتعود على حياة جديدة.

الصداقة نجدها عند الكثير من الأدباء والعلماء والحكماء من أقوالهم على الصداقة يتناقلونها الناس بينهم بشكل دائم ومستمر.

- **زكرياء ياسين**: الصداقة تبدأ عندما تشعر أنك صادق مع الآخر ودون أقنعة.
- **أوسكار وايلد**: جميل أن تبدأ الصداقة بابتسامة والأجمل منها أنها تنتهي بابتسامة فليس الضحك بداية سيئة للصداقة وما تزال أفضل نهاية له.
- **بلوطس**: إذا كنت تملك أصدقاء إذن أنت غني.
- **عبد الله بن المقفع**: صحبة الأخيار تورث الخير وصحبة الأشرار تورث الندامة.
- **مصطفى صادق الرافعي**: واعلم أن أرفع منازل الصداقة منزلتان: الصبر على الصديق حين يغلبه طبعه فيسيء اليه، ثم صبرك على هذا الصبر حين تغالب طبعك لكيلا تسيء اليه.

ومن الأمثال العربية:

- المرء بخليله.
- الرفيق قبل الطريق.
- صداقة زائفة شر من عداوة سافرة.

وإذا ما عدنا إلى رواية "تشرفت برحيلك" لفيروز رشام نجد الصديقة تمثلت في سعادة فهي كانت رفيقة خير، تشجع فاطمة على الدراسة والعمل، وكذا حثها للحفاظ على علاقاتها العاطفية، نهى كانت رفيقتها في الثانوية فهي إنسان مرجة حقيقية الدم –سعاد– «هي إحدى رفيقات البطلة،

وبعد مغادرة الدراسة أصبحت صديقتها الوحيدة سعاد فتاة مغامرة ومتهورة، قوية وواثقة من نفسها، متحدثة جيدة ومقنعة تعرف الجميع، فتاة تحب مرحة تجيد الدفاع عن نفسها وتحب الحياة « منذ سنتين ونحن نترافق في الطريق من القرية إلى موقف الحافلات ومن هناك إلى الثانوية الموجودة وسط المدينة، أشعر بالأمان معها لأنها تجيد الدفاع عن نفسها، سعاد مرحة وتحب الحياة وفوق هذا نتائجها المدرسية ممتازة وطموحها أن تصبح طبيبة أطفال».[1]

كانت سعادة دائمة الوقوف إلى جانب فاطمة الزهراء سواء في المنزل أو الدراسة، وفي علاقتها العاطفية، تنقل لها الأخبار خاصة أخبار حبيبها طارق فهي كانت الوسيط بين فاطمة وطارق.

كانت دائما إلى جانبها دون ألغاز ولا قيود.

«كنت واقفة في الساحة مع سعاد في ذلك الصباح الذي انتقلت فيه عدوى التوتر إلى جميع التلاميذ رغم الضحكات التي تعلو هنا وهناك، سعاد تعلم بشأن طارق طبعا، فهي المرافقة الدائمة في المدرسة والطريق. فقد تركت مكانها لطارق دون غيرة أو غضب».[2]

كانت سعاد هي حافظة أسرار فاطمة والمساندة لها في جل أمور حياتها العاطفية أو الأسرية وغيرها، تقول الروائية «وقفنا عند عتبة الباب وأمي وجميلة وخديجة وولداها جميعا في الفناء لم أقل شيئا لأن ملامحي تحمل الجواب سبقتهم سعاد إلى الكلام مخاطبة أمي:

- خالتي نورة هذه ليست سوى المرة الأولى، العام المقبل يإذن الله سوف تنجح، البكالوريا ليس أي امتحان لقد كان صعبا جدا.

خرج فؤاد حينما سمع حديثنا:

- كنت أعلم أن الدراسة آخر اهتماماتك الآن مزقي كتبك وأنسي المدرسة إلى الأبد.

علقت خديجة بلؤم شديد:

- الذين درسوا نجحوا.

عرفت سعاد معركة ما على وشك الوقوع، وبدأت الانسحاب قائلة:

---

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: 28/29.

[2] المصدر نفسه، ص: 42.

- دعوها وشأنها هذه ليست نهاية العالم، سوف تنجح السنة المقبلة إن شاء الله.

سحبتني من ذراعي قبل أن تغادر لتعيش فرحتها مع أهلها، ووشوشت في أذني:

- ابقي هادئة ولا تنتش جري مع أحد، سأزورك لاحقا».[1]

هكذا كانت سعاد دائما مساندة لها في أسرتها، محاولة الوقوف إلى جانبها يوم لم تنجح في البكالوريا، فكل الناس كانوا ضدها إلا سعاد كانت معها.

«مرّ الخريف ومعه تناثرت أحلامي، كنا في بداية شهر ديسمبر عندما زارتني سعاد بعد صلاة الجمعة، آخر مرة رأيتها فيها كانت شهر ديسمبر، هذه المرة جاءت ومعها أخبار جميلة، جلسنا في الغرفة وامتنعت لبرهة عن الكلام وفهمت جميلة أنها تريد الحديث أمامها، فغادرت لتحضر لنا القهوة، سحبت من جيب معطفها شيئا ووضعته تحت وسادتي.

- خبيئيها جيدا، إقرئيها لاحقا.

- ما هذا؟

- إنها رسالة من طارق.

كمن يتنفس من جديد بعدما كان يختنق، تنفست بعمق وقفزت في مكاني وأنا جالسة:

- طارق، أحقا التقيت به».[2]

فهي دائما تقدم الخدمات لفاطمة وتنقل لها أخبار طارق، فهي كانت بمثابة الوسيط بين فاطمة وطارق.

هذه كانت بعض الصور للمرأة التي حاولنا الإلمام بها في هذا الفصل، فالرواية المدروسة تقدم صورا مختلفة للمرأة وهي في الواقع تصور لنا المجتمع وتطوراته الثقافية والحضارية.

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: *50*.

[2] المصدر نفسه، ص: *64*.

خاتمة

بعد هذه الرّحلة الشّائقة الّتي عالجت بالدّرس فيها رواية «تشرّفت برحيلك» للرّوائيّة فيروز رشّام، خلص البحث إلى النّتائج الآتية:

✓ ارتبطت الرواية ارتباطا وثيقا بالواقع الجزائري، إذ حاولت مسايرة ومساندة الواقع الإجتماعي المتأزم الذي عاشه الشعب الجزائري فترة العشريّة السّوداء.

✓ بروز في متن رواية « ت شرفت برحيلك» ملامح المجتمع الجزائري ومعاناته من مشاكل سياسية كفساد السلطة ومشاكل اجتماعية كالصراع الطبقي في الأسرة والإغتصاب.

✓ حاولت فيروز رشام من خلال روايتها تقديم نماذج المرأة في مرحلة عشريّة الدّم التي مرت بها الجزائر؛ حيث حاولت من خلالها رصد مختلف الأحداث البشعة الّتي وقعت في ذلك الوقت، كما عبرت عن راهن الجزائر أنذاك ،فكانت قريبة من الحدث برصدها لمشاكل، ومشاهد العنف، والقتل ...إلخ.

✓ العنف ظاهرة عالمية، وهو السلوك المرتبط باستخدام القوة والشدة.

✓ للعنف الاجتماعي عدة أشكال منه العنف ضد المرأة، والعنف الأسري، والعنف ضد الأطفال.

✓ تعدّدت مواقف العنف في الرواية بين: عنف لفظي، عنف جسدي، وعنف نفسي، فالعنف يأسر الرواية من بدايتها حتى نهايتها.

✓ الإرهاب نوع من الإكراه الفكري، وهو إرهاب فكري عن طريق الأذى اليدوي.

✓ إن ظاهرة الإرهاب لم تأت من فراغ، بل لها أسبابه ودواعٍ، لكن تصنيفها صعب للغاية.

✓ الإرهاب كابوس مرعب يعيشه العالم، والمجتمع الجزائري خاصة في تلك الفترة الزمنية بكل مخلفاته السلبية.

✓ تجمع رواية «تشرفت برحيلك» بلغة فنية راقية تلك العلاقات المزدوجة بين قضايا إجتماعية، وسياسية مثلما هو الحال بين الحب، والإرهاب.

✓ يستخدم الارهابيون العنف الإسلام شعارا لهم، ويُركّزون على الاعتداء على المدنين الأبرياء لتهديد الأمن الاجتماعي في البلاد.

✓ يُعدّ الجنس أول وسيط جنسانيّ بين الرجل وزوجته ؛حيث يجب اتقانه وإعطائه قيمة.

✓ إجبار الزوجة على العلاقة الحميمة المألوفة الطبيعية بين الأزواج من طرف الزوج يُعدّ اغتصابا زوجيّا.

✓ معاناة فاطمة من الاغتصاب الزوجي على طوال فترة الحياة الزوجية؛ لأنّ صورة الحياة تختفي عندما يختفي الحب؛ لتكون ثنائية الحب والإرهاب ضدية لا يمكن أن يلتقيا أو يجتمعا.

✓ إن الرواية تشرفت برحيلك هي رواية عمودها الفقري العلاقة بين المرأة والرجل.

✓ تعدّدت أدوار المثقف في المجتمع؛ فهم أصحاب المعرفة، والحكم على المواقف المختلفة هو من العوامل المؤثرة، والأساسية في تطوير المجتمع، فهم أكثر الناس مساهمة في بناءه وتقدمه، ومن أهمّ نماذج المثقفين الحاضرة في رواية «تشرفت برحيلك» نذكر: شخصية فاطمة – المعلمة، فنموذج فاطمة نموذج للمثقف الإيجابي الّذي تسعى إلى التغيير والتقدم.

✓ صورت الرواية المرأة الجزائرية واحتياجاتها للحب في مختلف تطوراتها العمرية، كما ركّزت على تبعية المرأة، وامتثالها للتقاليد، والعادات الاجتماعية، والاستسلام لها، ولسلطة المجتمع.

✓ ترمز شخصية فاطمة إلى الفتاة المحافظة التي تتميز بنوع من الحرية والانفتاح نلمسها في جرأتها، كما ترمز إلى شخصية الفتاة المستقرة عاطفيا، وماديا، واجتماعيا مع أسرتها؛ لأنّ وجود الأب منحها أمانا اجتماعيّا، ليتمّ الانتقال إلى مرحلة سلطة الإخوة لتنتهي في الأخير بسلطة زوجها المهيمن.

✓ اختارت الرّوائيّة شخصياتها من الواقع؛ أي إنّهاانعكاس للواقع، فهي الأصل مع ملامح جديدة ومبتكرة مواكبة للزمن، والكتابة، فهي سعت إلى تقديم رواية تجسّد الواقع وتعّبر عنه، وتقدّم كل نقاط الضعف والقوة؛ أي إنّ الرواية الحديثة هي أقرب بوادر الأدب الذي يصور

الواقع، وتقديم صورة حيّة عنه؛ أي إنّها خصصت جزءا اهتماما كبيرا للمرأة، كما كانت بمثابة اعتراف بأنّ المرأة نصف المجتمع -المركز-.

✓ تعدّدت صور المرأة في الرواية؛ حيث عالجت الرواية الجزائرية صورة المرأة العشيقة بصور مختلفة، فقد كان للمرأة حضور قوي، ومميز، فقد حازت على الاهتمام خاصة في الرواية وعددوا الصور الذي تناولتها وكررها باختلاف الأسماء والأمكنة والأزمنة، و منها: تجلت صورة المرأة في الرواية في أنماط مختلفة: العشيقة والحبيبة، المرأة الأم، المرأة العاملة، المرأة المهمشة، المرأة المطلقة.

✓ قدّمت الرواية صورة الأم الفاضلة المربية الواعية التي تحرص على تربية أولادها، ورعايتهم.

✓ تعدّد صوّر المرأة السّلبيّة، والّتي تُجسّدها شخصيّة فاطمة، وهي امرأة مقهورة خاضعة للهيمنة الذكورية، مقموعة، ومغلوبة على أمرها.

✓ بروت صورة المرأة العاملة التي أبت أن ترضخ للتقاليد والمجتمع الذكوري مع غيرها من النساء اللاتي ارتضين لأنفسهن الاكتفاء بدورهن في المنزل، وخرجن إلى ميدان الأعمال لتقف مع الرجل على كف المساواة، مما يؤشر على التغيير الذي طرأ على القيم، والتقاليد، والمجتمع الجزائري.

✓ بيّنت الرّواية صورة المرأة المطلقة التي أبت أن تستسلم لآثار الطلاق، وسلبياته، والخروج من القوقعة القاتلة.

✓ نلتمس أن المرأة لدى فيروز رشام ليست شرا ولا خيرا خالصا، وإنما هي مخلوق يحمل في جوانبه وبين ضلوعه جوانب قوته، كما يحمل جوانب ضعفه مما يؤدي إلى وجود صراع بين هذا المخلوق والحياة نفسها.

ملاحق

بيوغرافيا فيروز رشام

روائية باحثة أكاديمية جزائرية تشغل منصب أستاذة محاضرة في كلية الآداب واللغات بجامعة البويرة، صدرت لها رواية بعنوان «تشرفت برحيلك» ودراسة نقدية «شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي»: دراسة أجناسية لأدب نزار قباني، شاركت في عدة مؤتمرات ونشرت عدة مقالات علمية وهي من الكاتبات المهتمات بقضايا المرأة والفكر والثقافة.

المؤهلات والنشاطات العلمية:

01/ بكالوريا علوم الطبيعة والحياة *1995* ثانوية محمد الصديق بن يحي البويرة.

02/ ليسانس في اللغة والأدب العربي *1999* جامعة مولود معمري تيزي وزو.

03/ ماجستير في الدراسة الأدبية والنقدية *2006* جامعة مولود معمري تيزي وزو.

04/ دكتوراه العلوم في تخصص قضايا الأدب والدراسات النقدية والمقارنة *2012* جامعة الجزائر *02*

05/ شهادة تأهيل الجامعي للترقية إلى رتبة أستاذ محاضر صنف «أ» *2014* جامعة الجزائر.*02*

06/ رئيسة فرقة بحث بعنوان دراسات في الأدب النسوي المغاربي تابعة لمخبر قضايا الأدب المغاربي قسم اللغة العربية وآدابها جامعة البويرة.

07/ عضو اللجنة العلمية لقسم اللغة العربية وآدابها جامعة البويرة.

08/ عضو مؤسس وناشط في الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية ورئيسة فرع ولاية البويرة.

ملخص رواية «تشرفت برحيلك»:

تغوص الأكاديمية فيروز رشام في أول أعمالها الروائية تشرفت برحيلك في أعماق مأساة المجتمع الجزائري مع الارهاب في فترة التسعينات عبر قصة بطلتها فاطمة الزهراء التي لخصت معاناتها ومصيرها وأوجاع كل المجتمع في لحظة تحول مريب انقلبت فيه كل المعايير والقيم.

تعيد أحداث الرواية التي تنطلق كرونولوجيا مع بداية التسعينيات مع ما يرمز له هذا التاريخ في صيرورة مسار المجتمع الجزائري تشكيل بداية المأساة التي مست كل شرائح المجتمع، وتتقصى الكاتبة في هذا العمل السردي الارهاصات الأولى لهذه المرحلة الدموية التي هزت كيان المجتمع على لسان بطلتها فاطمة الزهراء التلميذة التي تحضر شهادة البكالوريا على واقع الالتحاق بالجامعة والانطلاق إلى آفاق واعدة.

وسط الفرحة والبراءة تبدأ تطرأ تغيرات غريبة على المجتمع تتجلى في أبسط أمور الحياة اليومية، من ملبس وطرائق التعامل والتفرقة بين الناس والأجناس وكذلك تغير منطق الأشياء والمفاهيم، ومن منزل بطلة الرواية الذي يرمز للعائلة الجزائرية البسيطة والمستقرة وكذلك يبدأ التحول الذي يظهر أيضا في شوارع وأماكن العبادة والمدارس وتصف ذلك بقولها: « في الأسابيع الموالية بدأ أخي فؤاد يتغير (*24* سنة) ترك الدراسة بمحض إرادته قبل أن يكمل تعليمه الأساسي».[1]

لكن سرعان ما تتفاقم الأحداث تنتقل الشائعات إلى الواقع اليومي الذي يصبح ويمسي على واقع أخبار الاغتيال وأبشع الجرائم في ديكور تسلسلي فاقت بشاعته أفلام الرعب، وتواصل تلك الذكريات القاسية إلى أذهان من عايشوا الفترة من خلال فاطمة الزهراء وسيرتها الحزينة التي تأخذ طول صفحات الرواية «*244* صفحة» ثم لتتبخر كل أحلامها في اللحاق بالجامعة أمام معارضة أخيها فؤاد الذي التحق بالجماعات المسلحة وأصبح يفرض أراءه على كل البيت.

وبدأ مصير فاطمة الزهراء ينحرف عن هدفها ويتلاعب به جبروت أخيها حيث التحق رشيد أيضا بركب أخيه ولم يعد بقدرة الدفاع عنها وعن بيته أمام وحوش بشرية.

[1] فيروز رشام: تشرفت برحيلك، ص: *07*.

وتستمر التقلبات التي عرفها المجتمع خلال تلك الأحداث الدامية عبر التطورات المأساوية التي طرأت على حياة البطلة التي تتضاعف أشجانها ومعاناتها بعد تزويجها من غريب أقرب إلى الوحش الآدمي استغل شبابها وصحتها ومالها، فكان يأخذ كل شيء غصبا حتى راتبها التي تتحصل عليه من وظيفتها في التعليم ويتركها لتعيش كمشردة ولما تصاب بمرض خبيث يرمي بها للشارع ويأتي بزوجة ثانية.

ومع ذلك فإن شخصية فاطمة الزهراء التي تربت وسط عائلة محافظة مقدسة للروابط الأسرية، وتحترم التقاليد والأعراف لم ترضخ للظروف ولم تكن ضعيفة بل كانت مقاومة لوالدها جعلها تتقبل الوضع الذي تعيش فيه، بدليل رفضها الهروب مع الرجل الذي تحبه والذي أحببته مع أن في ذلك خلاصها. وكذلك أشارت الروائية إلى نماذج نسائية قوية فرضت أنفسهن رغم الصعاب أمثال ذلك: سعاد صديقة البطلة.

كانت الرواية جريئة ومفعمة بالمواقف والعواطف الإنسانية في نقلها للمعاناة في فترة عصيبة استفحل فيها الطرف الديني، فهي مرافقة لحقوق المرأة وتكريم تضحياتها وصمودها في مجتمع ذكوري قمعي، ترصد كذلك التغيرات الاجتماعية والسلوكية والنفسية التي حدثت في المجتمع الذكوري خلال العشرية السوداء مخلفة أثار عميقة في نفوس الضحايا وعلى خلاف المسار الأسود لتسلسل الرواية يلوح الأمل بعد الألم لتنهي الكاتبة أحداث الرواية بجعل البطلة تلتقي في الأخير بحبيبها طارق في لحظة يصعب تفكيك رموزها

ولقد نجحت الكاتبة في غوص القارئ في الأحداث حيث جسدت الكاتبة الأحداث التي مرت بها البطلة تميزت اللغة التي كتبت بها الروائية بالبساطة والسلاسة في السرد وكذلك الأسلوب البسيط.

قائمة
المصادر و المراجع

القرآن الكريم، رواية حفص عن عاصم.

I. المصدر:

1/ فيروز رشام: تشرّفت برحيلك، ط2، دار فضاءات النشر والتوزيع، عمان، 2017.

II. المراجع:

1-إبراهيم سعدي: تسعينات الجزائر كنص سردي، (د.ط)، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة.

2-أحمد نادر عبد الخالق: الصورة والقصة، ط1، دار العالم العربي.

3-الأخضر بن السائح: سرد الجسد وغواية اللغة، ط1، عالم الكتب الحديثة، أربد، الأردن، 2000.

4-إدوارد سعيد: صور المثقف، ترجمة: غسان غسن، ط1، دار نهار للنشر، بيروت، 1996.

5-اسماعيل عز الدين: الشعر الأدبي المعاصر، قضايا وظواهره الفنية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1978.

6-التطاوي عبد الله: الصورة الفنية في شعر مسلم عبد الوليد، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1997.

7-الحوفي أحمد محمد: المرأة في الشعر الجاهلي، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

8-الخضري محمد أحمد: إدارة الأزمات، ط1، مكتبة مدبوني، القاهرة، مصر، 1995.

9-ريتشارد تميلر: قواعد الحب ترجمة مكتبة جرير، ط2، مكتبة جرير، الرياض، 2010.

10-سالم ساري خضر زكرياء: المشكلات الاجتماعية الراهنة العولمة وإنتاج مشكلات جدية، ط1، دمشق، الأهالي، 2004.

11-الشريف حبيلة، الرواية والعنف، دراسة سوسيونقدية في الرواية الجزائرية المعاصرة، ط1، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، الأردن، 2010.

12-صالح مفقودة: المرأة في الرواية الجزائرية، ط2، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2009.

13-عبد السلام محمد الشاذلي: شخصية المثقف في الرواية العالية الجديدة، ط1، دار الحداثة، الجزائر، 1985.

14-علي بن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألف، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2016.

15-العياشي عنصر: الأزمة الجزائرية بعيون متفضية، نصوص مختارة، الجزائر، 1998.

16-فريد الزاهي: الجسد والصورة والمقدس، ط1، افريقيا الشرق والمغرب، 1999.

17-كوزونيليا الخالد: خصوصية الابداع النسوي، المرأة العربية والإبداع النسائي، النظريات النسوية.

18-محمد الشيخ: المثقف والسلطة، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1999.

19-محمد تامالت: الجزائر من فوق النيران شهادات الجنرالات ورؤساء الحكومة وزعماء أحزاب وشخصية من الجبهة الوطنية الإسلامية للإنقاذ، الجزائر، 1999.

20-محمد داود وفوزية وآخرون: الكتابة النسوية، تلقي الخطاب والتماثلات، دط، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، 2010.

21-محمد سبيلا: مدارت الحداثة، ط1، الشكلية العربية للأبحاث، بيروت، 2009.

22-محمد سعيد إبراهيم الخولي: العنف في مواقف الحياة اليومية، ط1، دار مكتبة الإسراء، عمان، 2006.

23-محمد عباس: الوطن والعشيرة، تشريع أزمة 1991-1996، ط1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.

24-مرفت تلاوي: العنف ضد المرأة، محمد حافظ متفرع من تسارع الثورة، المهندسين، الجيزة، مصر.

25-نازك الأعرجي: صوت الأنثى، دراسات في الكتابة النسوية للعربية، ط1، الأهالي للطباعة والنشر، سوريا، 1998.

26-هلال محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، مطبعة دار النهضة، مصر، 1997.

27-هويدا صالح: صورة المثقف في الرواية الجزائرية المعاصرة، ط1، دار الرؤيا، القاهرة، 2013.

28-اليمين زرواطي: التجربة الجزائرية في مكافحة الارهاب، ط1، مؤسسة المعارف، 2014.

29-يوسف ملاجمعة الياقوت: الارهاب، ط1، الأردن، 2010.

III. المذكرات والمجلات والمجلّدات والرّسائل:

1-إيثار عبد الهادي محمد: استراتيجية إدارة الأزمات، مجلة العلوم الاقتصادية والإدارية، مجلد 17، العدد 64، جامعة بغداد، كلية الإدارة والاقتصاد، العراق، 2011.

2-بوعلي ياسين: الأعمال الكاملة خير الزاد من حكايات شهرزاد، المجلد 1.

3-بويجزة محمد البشير: الشخصية في الرواية الجزائرية، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

4-خصوصية الابداع النسوي، دراسة كوزونيليا الخالد، المرأة العربية والإبداع النسائي، النظريات النسوية.

5-سهيل لعروسي: الاشكالية الثنائية في الثقافة الغربية، مجلة الفكر السياسي، منشورات اتحاد كتاب العرب، العدد9-10، دمشق، 2007.

6-السيوف نبيلة فايز: قضايا المرأة بين الصمت والكلام في رواية السنوية العربية، رسالة ماجستير إشراف: سمير قطامي، الجامعة الأردنية، 2001.

8-عبد الغني خشبة: الشعر المعاصر بين واقع الأزمة وحداثة الخطاب، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطين، الجزائر، 2016.

9-قيس آدم: آليات المقاربة الجزائرية في مكافحة الارهاب، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 30، ورقلة، سبتمبر 2017.

10-مجلة الرسالة، المجلد الثاني، العدد 64.

11-هنية مشقوف: العنف ضد المرأة قراءة في روايات فضيلة الفاروق، مجلة المخبر، العدد 6، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2010.

12-يوسف عبد المجيد فالح الضمور: صورة المرأة في شعر خليل مطران، مذكرة ماجستير، الأدب واللغة العربية، 2001.

IV. المعاجم والقواميس:

1-أبو الفضل جمال الدين بن منظور: لسان العرب، ط2، دار صادر، لبنان، بيروت، 1968.

2-أبو هلال العسكري: الفاروق في اللغة العربية، ط1، معراج الشوق، جزء 3.

3-اسماعيل بن حماد الجوهري: معجم الصحاح، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1975.

4-جار الله الزمخشري: أساس البلاغة، مادة أ ز م، ط1، مكتبة بيروت، لبنان، 1992.

5-جماعة من كبار اللغويين العرب: المعجم العربي الأساس، لاروس، ط1، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، 1989.

6-جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ فرنسية وعربية والأنجليزية واللاتينية، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.

7-مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، المجلد 1، ط4، مكتبة الشروق الدولية، 2004.

8-محمد بن يعقوب: الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987.

9-محمد بوزواري: معجم المصطلحات الأدبية، الدار الوطنية للكتاب، الجزائر العاصمة، 2009.

10-بلمحمد عناني: معجم المصطلحات الأدبية الحديثة، ط2، الشركة المصرية للنشر، مصر، 1997.

فهرس
الموضوعات

المحتويات	الصفحة
مقدمة	ب
الفصل الأول: أزمة المرأة وصراعها مع الآخر	01-44
1. مفهوم الأزمة.....	02
1.1/ لغة.....	02
2.1/ اصطلاحا.....	02
3.1/ الأزمة الجزائرية وأسبابها.....	04
4.1/ رواية الأزمة زمن التسعينيات.....	05
2/ المرأة والعنف.....	07
1.2/ مفهوم العنف.....	07
1.1.2/ العنف لغة.....	07
2.1.2/ العنف اصطلاحا.....	08
2.2/ تجليّات العنف ضدّ المرأة في رواية «تشرّفت برحيلك».....	09
3/ المرأة والإرهاب في الرواية.....	16
1.3/ مفهوم الإرهاب.....	16
1.1.3/ الإرهاب لغة.....	17
2.1.3/ الإرهاب اصطلاحًا.....	18
3.1.3/ الشخصية الإرهابية.....	20
4.1.3/ بين الإرهاب والعنف.....	22
4/ المرأة والجنس في الرواية.....	23
5/ المرأة والجسد في الرواية.....	25

6/ المرأة والحب.....	33
7-المرأة والمثقف.....	39
1.7/ مفهوم المثقّف.....	39
1.1.7/ المثقّف لغة.....	39
2.1.7/ المثقّف اصطلاحا.....	40
الفصل الثاني: تجليات صورة المرأة في الرواية.....	45 - 77
1/ مفهوم الصّورة.....	49
1.1/ لغة.....	54
2.1/ اصطلاحا.....	47
2/ صورة المرأة الحبيبة والعشيقة.....	49
3/ صورة الأم.....	54
4/ صورة المرأة السّلبيّة.....	58
1.4/ صورة المستضعفة.....	58
2.4/ صورة المرأة المستسلمة للواقع.....	62
3.4/ صورة المرأة المقهورة.....	65
5/ صورة المرأة العاملة.....	66
6/ صورة المرأة المتحكمة.....	70
7/ صورة المرأة المطلّقة.....	72
خاتمة.....	78
ملاحق.....	82
قائمة المصادر والمراجع.....	86
فهرس الموضوعات.....	91

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى استجلاء صورة المرأة في الرواية الجزائرية من خلال الوقوف على صورتها عند الكاتبة **فيروز رشام** في رواية **"تشرفت برحيلك"** التي أرادت من خلالها تصوير واقع المرأة، فهي تُعَدُّ من المواضيع البارزة في الفن الروائي نظرا لأهميتها التي تؤديها في المجتمع، ودورها كالفاعل الاجتماعي فهي المحور الأهم، ولقد قمنا بعرض مفاهيم عدة: الصور، المرأة، الرواية وأهمية المرأة في الرواية الجزائرية واستخراج العديد من صور المرأة في هذه الرواية منها: الحبيبة، العشيقة، الأم، الزوجة، الصديقة.

وقد تناولنا في المدخل صورة المرأة في الرواية الجزائرية الحديثة، وخصّصنا الفصل الأول لأهم قضايا المرأة في الرواية الجزائرية، وقدّمنا في الفصل الثاني صورة المرأة في الرواية بصورة متعددة أنهيناه بخاتمة رصدنا فيها أهم النتائج.

الكلمات المفتاحية: الرواية، المرأة، الصورة، الزوجة، الأم.

***Abstract*:**

This study aims to elucidate the image of the women in the Algerian novel by standing on her image with the writer « Fairouz Rachan » in a novel that I was honored with your departure, thruogh which she performed the portrayal of the reality of woman. whe have presented several concepts of the woman's image. The novel and the importance of the woman in the Algerian novel including the beloved, the lover, the mother, and the friendly wife.

In the portal we dealt with image of women in the modern Algerian nove, and the first chapter to the most important issues of the women in the Algerian novel in the second chapter we presented the image of the woman in the novel in a multiple way we ended it with a conclusion in which we mentionned the most important results.

Key-words: The novel – women – image – wife- the mother.